نظام التعلم الإلكتروني والتعليم عن بعد

محتوى التفكير البلاغي عند العرب

د / سليمان علي محمد عبد الحق

الفصل الدراسي الثاني

١٤٣٦هـ

المحاضرة الأولى
نشأة البلاغة العربية وتطورها

أولاً : البلاغة في العصر الجاهلي:

- عرف العرب الفصاحة والبلاغة وحسن البيان ، وبلغوا في الجاهلية درجة رفيعة من البلاغة والبيان وقد صوّر القرآن ذلك في آيات عديدة ، مثل قوله تعالى:(ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا) كما وضح القرآن شدة قوتهم في الجدال والحجاج في قوله تعالى :" ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون ".
- ومن أكبر الدلائل على أنهم بلغوا في البلاغة درجة عالية رفيعة أن كانت معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم وحجته الدالة على نبوته القرآن ، حيث دعاهم إلى معارضته ، وتحداهم بأن يأتوا بمثل بلاغته الباهرة ، وهي بلا شك دعوة تدل بوضوح على تمكنهم ورسوخ قدمهم في البلاغة والبيان ، وعلى بصرهم بتمييز أقدار المعاني والألفاظ ، وتبيين ما يجري فيها من جودة الإفهام وبلاغة التعبير .
- وقد وصف الجاحظ العرب بالبلاغة والفصاحة وقدرتهم على القول في كل عرض حيث قال: (والكلام كلامهم ، وهو سيد عملهم قد فاض به بيانهم ، وجاشت به صدورهم) .
- وقد حفلت كتب الأدب كالأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، والموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمزرباني بنماذج عديدة من النقد الجاهلي الذي كان يدور في أسواقهم المعروفة في الجاهلية كعكاظ ، من ذلك مثلاً أن النابغة كانت تضرب له قبة حمراء في سوق عكاظ فتأتيه الشعراء تعرض عليه أشعارها ، فيقول فيها كلمته فتسير في الناس لا يستطيع أحد أن ينقضها . من ذلك قصته المشهورة في تفضيل الأعشى على حسان بن ثابت ، وتفضيل الخنساء على بنات جنسها ، فثار لذلك حسان وقال له : أنا والله أشعر منك ومنها ، فقال له النابغة : حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقوله :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى   وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرّق   فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقال له النابغة : إنك لشاعر ، لولا أنك قللت عدد جفانك وسيوفك ، وقلت : يلمعن في الضحى ، ولو قلت : يبرقن ، لكان أبلغ في المديح ؛ لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً ، وقلت : يقطرن من نجدة دما ، فدللت على قلة القتل ، ولو قلت : يجرين ، لكان أكثر لانصباب الدم ، وفخرت بمن ولدْتَ ولم تفخر بمن ولَدَكَ ، فقام حسان منكسراً .
- ومن ذلك أيضاً قصة طرفة بن العبد وهو صبي ، عندما سمع المتلمس ينشد قوله :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره   بناجٍ عليه الصيعرية مكدم

والصيعرية سمة تكون في عنق الناقة لا في عنق الجمل ، فقال طرفة : استنوق الجمل ، فضحك الناس وسارت مثلاً .
- ومن ذلك أن العرب عابت على النابغة الذبياني الإقواء الذي في شعره ، وهو أن يأتي بقافية مضمومة بعد قافية مكسورة في نفس القصيدة ، ولم يستطع أحد أن يصارحه بهذا العيب ، نظراً لمكانته الأدبية ، حتى دخل يثرب مرة ، فأسمعوه غناء قوله :

أمن آل ميةَ رائحٌ أو مغتدي   عجلانُ ذا زاد وغيرُ مزودِ

إلى قوله :

بمخضَّبٍ رخصٍ كأنَّ بنانَه   عَنْمٌ يكادُ من اللطافةِ يُعقَدُ

ففطن النابغة ، فلم يعد إلى ذلك ، ويروي أنه حين خرج قال : دخلت يثرب فوجدت في شعري صنعة ، فخرجت منها ، وأنا أشعر العرب .
- وتروي كتب الأدب أن موضع الإقواء كان في قوله :

زعم البوارح أن رحلتنا غداً   وبذاك خبّرنا الغرابُ الأسودُ

وأنه أصلحه بقوله : وبذاك تنعابُ الغرابِ الأسودِ .
- وهناك أمثلة عديدة تبين أن العرب كانت لهم ملاحظات بلاغية واضحة في هذا العصر ، ولكنها كانت ذا طابع فردي ، لكننا نكتفي بهذا القدر مشيرين إلى أن العرب في جاهليتهم كانت لديهم ملكة فنية استطاعوا من خلالها معرفة الكلام وتمييز جيده من رديئه .
- ولا يخفى أن هذه الملاحظات النقدية كانت تعتمد على الذوق فحسب ، فهي نقد ذاتي أو انطباعي أو تأثري ، لا يقوم على التعليل والتفصيل ، كما أنه لا يبرز أسباب الجودة أو الرداءة في البيت الشعري .

- وبمرور الزمن ذكر العلماء لهذه الأحكام والملاحظات النقدية تعليلات تقوم على أسس بيانية ، وتحول هذا النقد إلى نقد بياني ينظر إلى المعاني والألفاظ على أيدي البلاغيين.

المحاضرة الثانية

البلاغة في عصر صدر الإسلام

البلاغة في عصر صدر الإسلام:

لاشك أن القرآن كان له تأثير عظيم في نشأة علوم العربية ، ومنها علم البلاغة ، حيث أسهم في تطويرها ؛ فقد عكف العلماء على دراسته وبيان أسرار إعجازه ، واتخذوه مداراً للدرس البلاغي ، كما اتخذوا آياته شواهدَ على أبواب البلاغة ، واعتبروها مثالاً يحتذى في جمال النظم ، ودقة التركيب .

- وكان النبي صلى الله عليه وسلم من أفصح العرب ؛ لأنه كان من قريش. كما كان شديد الاهتمام والعناية بالشعر والشعراء ؛ يحرص على سماعهم والإشادة بشعرهم ؛ من ذلك قوله لحسان بن ثابت ، الملقب شاعر الرسول ، رضي الله عنه : " قل ، وروح القدس يؤيدك " .

و منه قوله عندما سمع قول النابغة الجعدي :

بلغنا السماء مجدُنا وجدودُنا وإنا لنبغي فوق ذلك مظهراً

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : إلى أين المرتقى يا أبا ليلى : فقال إلى الجنة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم " لا فُضَّ فوك " .

- وقد ظلت وفود العرب تأتي في عهد الخلفاء الراشدين إلى المدينة ، وتجمعهم أنديتها ، فيخوضون في أخبار شعراء الجاهلية ، والشعراء والمخضرمين ، وينظرون في الشعر والخطب ، ويعقدون المفاضلات بين الشعراء والخطباء .

- وقد كان الخلفاء يخوضون في ذلك أيضاً ، ولهم مشاركات واضحة في النقد ؛ من ذلك ما روى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه عرض لرجل معه ثوب ، فقال له : أتبيع الثوب ؟ فأجاب : لا عافاك الله ، فقال له أبوبكر : لا تقل هذا ، بل قل : لا وعافاك الله ». فالقول الأول دعاء عليه ، والثاني دعاء له ، والفرق بين القولين إثبات الواو أو حذفها .

- وقد كانت لعمر وعليّ رضي الله عنهما مساهمات في النقد أيضاً ، فقد كان عمر بن الخطاب من أنقد أهل زمانه للشعر وأنفذهم فيه معرفة ؛ من ذلك قوله :" الشعر علم قوم لم يكن له علم أصح منه ".

- وقوله في زهير : إنه أشعر العرب ، لأنه : " كان لا يعاظل في الكلام ، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه " أما علي رضي الله عنه ، فقد اشتهر بالفصاحة والبيان ، وفصاحته معروفة لا تخفى على أحد ؛ وقد روى أن أعرابياً وقف أمام عليّ رضي الله عنه ، وقال : إن لي إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك ، فإن قضيتها حمدت الله تعالى وشكرتك ، وإن لم تقضها ، حمدت الله تعالى وعذرتك ، فقال له علي : خطّ حاجتك في الأرض ، فإني أرى الضر عليك ، فكتب الإعرابي على الأرض : إني فقير ، فقال علي : يا قنبر ادفع إليه حلتي الفلانية ، فلما أخذها مثل بين يديه ، فقال :

كسوتني حلةً تَبلَى محاسنُها فسوف أكسوك من حللِ الثنا حللاً
إن الثناءَ لَيُحيى ذكرَ صاحبه كالغيثِ يحيى نداه السهلَ والجبلا
لا تزهد الدهرَ في عرف بدأت به فكلّ عبدٍ سيُجزَى بالذي فعلا

فقال عليّ : يا قنبر ، أعطه خمسين ديناراً ، أما الحلة فلمسألتك ، وأما الدنانير فلأدبك ، فقد سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم يقول : أنزلوا الناس منازلهم .

- وبهذا تبين لك أن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين ، كان لديهم معرفة بالشعر ونقده ، كما أن ملاحظاتهم النقدية كانت كالجاهلين جزئية فطرية ، تعتمد على الذوق دون تعليل لها .

- هذه الأحكام والملاحظات هي التي استحالت على أيدي البلاغيين ، من أمثال الباقلاني ، والرماني ، والخطابي ، والعسكري ، وعبد القاهر والسكاكي إلى قواعد بلاغية ، محددة تحديداً علمياً دقيقاً ، قصد منها الوقوف على وجه إعجاز القرآن البلاغي وتكوين الذوق الأدبي الذي يستطيع تمييز الكلام البليغ ، ومعرفة جيدة ، ويفاضل بينه .

- وهنا يطرأ سؤال على قدر كبير من الأهمية : لِمَ لم تظفر البلاغة التعليمية بشيء من التدوين في عصر صدر الإسلام مادام أن تدوينها وتعليمها من أمور الدين أو من الأمور التي يحتاج إليها المسلم كما يحتاج إلى معرفة الحلال والحرام ؟

الجواب على ذلك : أن الصحابة والتابعين كانوا يعرفون القواعد البلاغية التي يقوم عليها إنشاء الكلام الفني ، والتي كانوا يعتمدون عليها في تمييز الكلام الجيد من الرديء ، لأنها كانت راسخة في طبائعهم ؛ لذا لم يحتاجوا إلى تدوينها ، على حد قول بهاء الدين السبكي في كتابه عروس الأفراح ٥٣/١ .

- وقد علل الزركشي صاحب كتاب البرهان في علوم القرآن عدم تدوين البلاغة في صدر الإسلام ، بأن القصد من إنزال القرآن الكريم هو تعليم الحلال والحرام ، وتعريف شرائع الإسلام وقواعد الإيمان ، ولم يقصد منه تعليم طرق الفصاحة ، وإنما جاءت الفصاحة لتكون معجزة ، وكانت معرفتهم بأساليب البلاغة مما لا يحتاج إلى بيان ، بخلاف استنباط الأحكام ، فلهذا تكلموا في الثاني دون الأول . ١٣٢/٢.

المحاضرة الثالثة

البلاغة في العصرين الأموي والعباسي

أولاً : البلاغة في العصر الأموي :

- في عصر بني أمية كثرت الملاحظات النقدية كثرة عظيمة عملت فيها بواعث وأسباب كثيرة ، منها : تحضر العرب واستقرارهم في المدن والأمصار ، وازدهار العلوم ورقيها مما أدى إلى رقي الحياة العقلية للأمة الإسلامية .حيث أخذوا يتجادلون في جميع شؤونهم السياسية والعقدية ، فكان هناك الخوارج والشيعة والزبيريون والأمويون ، والمرجئة والقدرية والمعتزلة ، فكان طبيعياً أن ينمو النظر في بلاغة الكلام وأن تكثر الملاحظات البيانية المتصلة بالكلام لا في مجال الخطابة والخطباء فحسب ، بل في مجال الشعر والشعراء ، بل لعل المجال الثاني كان أكثر نشاطاً لتعلق الشعراء بالمديح وتنافسهم فيه .

- وفي هذا العصر نشطت حركة النقد سواء في مجال مجالس الخلفاء والولاة أم في الأندية الأدبية كسوق المربد في البصرة وسوق الكناسة في الكوفة ؛ حيث كان الشعراء يجتمعون في هذه الأسواق لينشدوا الناس خير ما صاغوه من الشعر .

وإليك بعض الأمثلة التي توضح ذلك :

من ذلك ما يقال من أن ذا الرمة كان ينشد بسوق الكناسة في الكوفة إحدى قصائده،فلما وصل إلى قوله :

إذا غير النأي المحبين لم يكد   رسيسُ الهوى من حب مَيَة يبرحُ

فصاح به ابن شبرمة : أراه قد برح ، وكأنه لم يعجبه التعبير بقوله: لم يكد ، فكف ذو الرمة ناقته بزمامها ، وجعل يتأخر بها ويفكر ، ثم عاد فأنشد :

النأي إذا غيّر المحبين لم أجد ....

ومن ذلك أيضاً أنه اجتمع الكُمَيتُ ، ونُصَيبُ ، وذو الرمة ، فأنشدهما الكميت ما قال ، حتى بلغ قوله :

أم هل ظعائنُ بالعلياء نافعةٌ   وإنْ تكاملَ فيها الأُنسُ والشَنَبُ

عقد نصيب واحدة ، فقال له الكميت : ماذا تحصى ؟ قال : خطأك ؛ باعدت بين الأُنس والشنب .

فنُصَيب ينقد الكُمَيت ؛ لأنه جمع بين أمرين لا يجتمعان في الخارج ، ولا في الذهن . وهو بما يعرف بمراعاة النظير .

ومن ذلك ما روي عن الحجاج حين أنشدته ليلى الأخيلية قولها :

إذا ورد الحَجّاجُ أرضاً مريضةً   تتبع أقصى دائِها فشفاها

شفاها من الداءِ العُضَالِ الذي بها   غُلامٌ إذا هزّ القناةَ ثناها

فقال لها الحجاج : لا تقولي غلام ، ولكن قولي هُمام .

لأن لفظ الغلام يشعر بالصبوة والنزق والجهل .

ومن ذلك ما روي عن عبد الملك بن مروان حين مدحه عبد الله بن قيس الرُقيّات بقصيدة منها قوله:

يأتلق منها التاجُ فوق مِفْرقِه   على جبينٍ كأنّه الذهبُ

فغضب عبد الملك وقال له : قد قلت في مصعب بن الزبير :

إنما مصعبٌ شهابٌ من اللهِ   تجلَّت عن وجهه الظلماءُ

فأعطيته المدح بكشف الغمم وجلاء الظلم ، وأعطيتني من المدح ما لا فخر فيه ؛ وهو اعتدال التاج فوق جبيني الذي هو كالذهب في النضَارة.

ومن ذلك ما روي عن ذي الرمة أنه أنشد هشام بن عبد الملك قصيدته التي مطلعها :

ما بال عينيك منها الماء ينسكب

فزجره هشام ، وقال له : بل عينيك . فهشام عاب على ذي الرمة قوله ؛ لعدم مراعاته المقام ، وبدءه قصيدته بما لا يتناسب ومقام الملوك ، وهو ما يعرف لدى البلاغيين ببراعة الاستهلال .
- ولعلّ في كل ما قدمنا من الأمثلة ما يدل على أن الملاحظات البيانية في العصور القديمة ، جاهلية وإسلامية ، لم تغب عن أذهان البلاغيين حين أصّلوا قواعد البلاغة ، وهي بحق تعد الأصول الأولى لقواعدهم .

ثانياً : البلاغة في العصر العباسي :

- لا نكاد نصل إلى العصر العباسي حتى أخذت الملاحظات البلاغية تزدهر ازدهارا عظيماً ، وتصطبغ بصبغة علمية ، وقد كان لذلك أسباب عديدة : منها ما يعود إلى تطور النثر والشعر ، مع تطور الحياة العقلية والحضارية ، ومنها ما يعود إلى نشوء طائفتِين من المعلمين : عنيت إحداهما باللغة والشعر ؛ وهي طائفة اللغويين والنحاة ، وعنيت الأخرى بالخطابة والمُناظَرة واستنباط الأدلة ؛ وهي طائفة الأدباء .
- كل هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى نمو البحث البلاغي وإزهاره وتطوره ، فكثرت الملاحظات البلاغية، بَدءاً بسيبويه إمام النحاة ، وانتهاء بإمام البلاغيين عبد القاهر الجرجاني ؛ الذي اكتمل صرح البلاغة على يديه ، فوضع أصولها ، وأرسى قواعدها حتى غدت البلاغة علماً مستقلاً ، وقد تجلّى هذا بوضوح من خلال كتابيه : أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز في علم المعاني.

- والحقيقة أن احتكاك العرب بكثير من الأمم الأجنبية في هذا العصر كان له دور مهم في تطور العلوم العربية قاطبة ، واكتسابها صبغة عقلية وفلسفية بل علمية أيضاً ، ومنها علم البلاغة العربية الذي تطور على يد كثير من الموالي الذين حذِقُوا العربية ، وأتقنوا علومها ، وكتبوا نثراً وشعراً بديعين ، ومنهم طائفة المولدين الذين نشأوا منذ بداية القرن الثاني الهجري ، وأثْروا العربية شعراً ونثراً ؛ مثل بشار بن برد، وأبي نواس ، ومطيع بن إياس وغيرهم ، ومنهم عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، وعبد الله بن المقفع ؛ اللذين كانا لهما دور بارز في نشأة النثر الفني أو العلمي آنذاك ، وما تميز به من سمات بلاغية عدة.

- هذا فضلاً على أن الدولة العباسية قد فتحت أبوابها على مصاريعها أمام الثقافات الأجنبية المختلفة من فارسية وهندية ويونانية وسريانية ، فاتسعت حركة الترجمة من العلوم الأخرى ، وظهرت علوم جديدة لم يكن للعرب خبرة فيها كعلم المنطق والفلسفة الذي تطور بعد ذلك واكتسى حلة عربية إسلامية وعرف بلم الجدل الذي ميز العقلية الدينية العربية آنذاك ، وأكسبها كثيراً من الرحابة والانفتاح ، فظهرت طوائف كثيرة أفادت منه ونشأت مدرسة المتكلمين على يد المعتزلة الذين أثروا المناظرات الكلامية ، وتجادلوا مع كثير من الفرق الدينية مثل طائفة أهل السنة والأشاعرة . ويكفينا أن نقرأ مؤلفات رأس المعتزلة آنذاك ؛ وهو الجاحظ (عمرو بن بحر الكناني – ت ٢٥٥ هـ) ، الذي يعد مؤسساً لكثير من مباحث علم البلاغة العربية وأبوابها .

المحاضرة الرابعة

البحث البلاغي : نشأته وتطوره

بدأ التأليف في علوم البلاغة مع بداية مرحلة التأليف في العلوم الإسلامية في منتصف القرن الثاني للهجرة ، وقد مرت البلاغة عبر رحلتها الطويلة بثلاث مراحل ، هي :

المرحلة الأولى :

مرحلة النشأة والنمو :

- نزل القرآن الكريم ليكون كتاب هداية ودستور حياة ، يهدي للتي هي أقوم ، وليكون معجزة للعالمين، ودليلاً على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .وكان المسلمون في عصر صدر الإسلام يعتمدون على طبعهم الأصيل في معرفة وإدراك إعجاز القرآن ، كما كانوا يعتمدون على طبعهم وذوقهم السليم في معرفة ضروب الكلام ، وتفضيل شاعر على آخر .

- ثم انتشر الإسلام واتسعت رقعة الدولة الإسلامية ، وكثر عدد الداخلين في الإسلام ، حيث أخذت هذه العناصر تمتزج بالعرب امتزاجا قوياً ، مما كان له أثره الكبير على اللغة العربية ، فأخذ الذوق العربي ينحرف ، وبدأت الملكات تضعف والإحساس ببلاغة الكلام يقل ، وفشا اللحن – أي الخطأ في قواعد النحو - على الألسنة . حينئذ ظهر علماء النحو فقاموا بوضع قواعد النحو والصرف ، ودفعهم إلى ذلك حرصهم على الحفاظ على لغة القرآن الكريم ، فظهرت لذلك كتب عديدة اهتمت بالعربية ، بالإضافة إلى الإشارة إلى وجود بعض الملاحظات البلاغية التي كانت مبثوثة في تضاعيف هذه الكتب ، وبذلك بدأت البلاغة رحلتها ، ومن أهم هذه الكتب :

كتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٠ هـ ، وقد كان أبو عبيدة من أوسع أهل البصرة علماً باللغة والأدب والنحو وأخبار العرب وأيامها .

* سبب تأليفه لهذا الكتاب:

تروي كتب الأدب أن الفضل بن الربيع وزير الرشيد استقدم أبا عبيدة من البصرة لحضور مجلسه، فلما حضر إلى المجلس ، سأل إبراهيم بن إسماعيل الكاتب أبا عبيدة عن قوله تعالى :(طلعُها كأنه رؤوس الشياطين) وإنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مَثَلُه ، وهذا لم يُعرف ، فقال أبو عبيدة : إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امريء القيس :

أيقتُلني والمشرفيُّ مُضاجعي ومسنونةٌ زرقٌ كأنيابِ أغوالِ .

وهم لم يروا الغول قط ، ولما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به، فاستحسن الفضل ذلك منه ، واستحسنه السائل ، وأزمع أبو عبيدة عند ذلك أن يضع كتاباً في القرآن لمثل هذا وأشباهه . وكلمة مجاز ليس المراد بها المعنى الاصطلاحي المعروف عند البلاغيين لهذه الكلمة ، وإنما تعني الطريق أو المعبر ، والمجاز عموماً هو استعمال اللفظ في غير ما وضع له ، مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي.

- فكتاب أبي عبيدة ليس كتاباً بلاغياً ، وإنما هو كتاب في التفسير ، حيث فسر فيه الألفاظ القرآنية بما ورد مثلها في كلام العرب ، وفي معرض تفسيره لآيات القرآن الكريم نثر بعض الملاحظات البلاغية ، وأشار إلى بعض مسائلها ؛ كالإيجاز ، والإطناب ، والتقديم والتأخير دون تسمية لها ، كما أشار إلى خروج بعض الأساليب الإنشائية عن دلالتها الأصلية إلى بعض المعاني البلاغية ؛ كالاستفهام ، والأمر ، والنهي ، كما تحدث عن الالتفات ، والتشبيه ، وتعرض للمجاز العقلي من غير تسمية له ، وإنما أشار إلى بعض شواهده التي أفاد منها البلاغيون فيما بعد .

ثم جاء بعده <u>الفراء</u> المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، ووضع كتابه <u>معاني القرآن</u>.

والفراء هو أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء ،كان من أعلم أهل الكوفة بالنحو واللغة وفنون الأدب .

- وكتاب معاني القرآن عالج المشاكل التي عالجها أبو عبيدة ، غير أن ثقافته النحوية قد ظهرت في كتابه بوضوح ، فهو يشرح بعض ألفاظ القرآن ، وبعض الأساليب البيانية والتراكيب الإعرابية ، ويرد كل ذلك إلى مذاهب العرب ، وقد نثر في تضاعيف هذا الكتاب بعض الملاحظات البلاغية ؛ حيث أشار إلى الإيجاز ، وأشار إلى بعض صور الإطناب ، وبيّن الغرض البلاغي منها ، وتحدث عن التقديم والتأخير ، ولاحظ خروج الاستفهام والأمر والنهي عن دلالتها الأصلية إلى معانٍ بلاغية ، ووقف عند صور المجاز العقلي ، ومثَّل له من القرآن الكريم ، ومن كلام العرب دون تسميةٍ له ، كما عرَّف التشبيه وبيّن أركانه من المشبه والمشبه به والأداة ووجه الشبه ، وعرض للمشاكلة أيضاً دون تسميةٍ لها .

المحاضرة الخامسة

تابع المرحلة الأولى من مراحل نشأة البحث البلاغي وتطوره

- ثم جاء القرن الثالث للهجرة ، فكثرت الفرق الإسلامية ، واشتد الخلاف فيما بينها ، وأخذ الإسلام وكذلك العرب يواجه بحملة تشكيكٍ وطعن ، واتجهت أنظار الطاعنين نحو القرآن ترميه باللحن وفساد النظم ، فانبرى العلماء يدافعون عن العرب والإسلام ، ومن بين هؤلاء المدافعين الجاحظ الذي ألف كتابه البيان والتبيين ، ودافع فيه عن العرب ضد الشعوبيين ، وفي هذا الكتاب أشار إلى بعض الفنون البلاغية ؛ كالاستعارة ، والتشبيه ، والكناية ، والإيجاز ، والإطناب .
- وعرّف البيان بقوله : " اسمٌ جامعٌ لكل شيءٍ كشف لك قناعَ المعنى، وهتك الحُجُبَ دون الضمير " كما أشار إلى أن البديع من خواص العرب ، ومنه الاستعارة والتشبيه والكناية ، كما ذكر موضوعاتٍ أخرى ، كبراعة المطلع والمقطع ، والسجع ، والاقتباس ، وغير ذلك .
- وهذه الفنون البلاغية التي ذكرها الجاحظ مبثوثة في تضاعيف الكتاب لا نحصل عليها إلا بالتأمل الطويل والتصفح الدقيق.
- وعلى أيه حال ، فالجاحظ يعد من أوائل العلماء الذين أسهموا في وضع أسس البلاغة في هذه الفترة .

ابن قتيبة الدينوري:-

- هو أبو محمد عبد الله بن قتيبة الدينوري ٢٧٦هـ ، وهو من تلاميذ الجاحظ والمعاصرين له ، وكان يمثل رأس أهل السنة آنذاك ، ألف كتابه تأويل مشكل القرآن ، وردّ فيه على الطاعنين في لغة القرآن وأسلوبه .
- وقد تحدث فيه عن العرب وما خصهم الله به من قوة البيان ، وتحدث عن وجوه إعجاز القرآن ، كما أشار إلى المجاز والاستعارة والقلب والاختصار في الكلام ، والزيادة فيه ، والكناية ، ومخالفة ظاهر اللفظ معناه .
- ويتميز ابن قتيبة عن سابقيه بأنه قد وضع لكل لون من هذه الألوان باباً يخصه ، وبحثه في ذلك بحث أدبي عام ليس فيه تقسيم ولا تحديد للمصطلحات .

المبرد :

- هو أبو العباس محمد بن يزيد المبرد المتوفي في سنة ٢٨٥هـ ، ألف كتابه الكامل في اللغة والأدب ، وقد نثر فيه كثيراً من مسائل البلاغة ، وعقد فيه للتشبيه باباً ، بدأ فيه بعرض كثير من التشبيهات الرائعة في شعر العرب ، وقسم التشبيه إلى أربعة أقسام هي : تشبيه مُفْرِط ، وتشبيه مُصيب ،وتشبيه مُقارِب ،وتشبيه بعيد .
كما تحدث عن الاستعارة والكناية والالتفات والإيجاز والإطناب وغير ذلك من ألوان البلاغة.
- وقد كان المبرد نحوياً بارعاً ، وله مؤلفات عدة غير كتابه الكامل ، وعلى الرغم من أن الكتاب متخصص في مباحث علم النحو ومسائله ، فإنه غلب عليه الطابع الموسوعي ، فقد زخر بكثير من علوم العربية ، خاصة مباحث البلاغة العربية ، حيث عالج فيه كثيراً من أبواب علم البيان ، لاسيما باب التشبيه ، كما أنه عالج مسائل بلاغية تدخل في أبواب علم البديع ، وعلم المعاني .

بعد ذلك ، أخذت هذه الكتب تميل إلى التخصص :

من ذلك كتاب البديع للشاعر الخليفة العباسي عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦هـ .

وكتاب البديع له قيمة كبيرة في تاريخ البلاغة ؛ إذ كان خطوة مهمة في تطورها وتقدمها ، وبخاصة في ميدان علم البديع ؛ فقد استقل بذكر أنواعه وفنونه ، والبديع عنده يختلف عن ما عرف لدى المتأخرين من علماء البلاغة بأنه علم يعرف به وجوه تحسين الكلام ، وإنما كان البديع عنده عاماً يتناول كثيراً من فنون البلاغة ، كالاستعارة، والتشبيه ، والمطابقة ، والجناس ، وقد سعى من خلال تأليف هذا الكتاب إلى تعريف الناس أن الشعراء المحدثين لم يخترعوا فنون البديع ، ولم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من منه.

وقد قسم كتابه إلى قسمين : الأول : البديع ، وحصره في خمسة فنون هي : الاستعارة ، التجنيس ، المطابقة ، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها ، والمذهب الكلامي .

الثاني : محاسن الكلام والشعر ، وذكر أنها كثيرة لا ينبغي لعالم الإحاطة بها ، وحصرها في ثلاثة عشر فناً منها : الالتفات ، والتعريض ، والكناية ، والتشبيه ، وتجاهل العارف ،والمبالغة والإفراط ،إلى غير ذلك .

- ثم جاء بعده قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ هـ الذي ألف كتابه نقد الشعر بين فيه أن الذي دفعه إلى تأليف هذا الكتاب هو تقصير العلماء وقعودهم عن التأليف في النقد ووضع كتاب فيه مع أنه أهم علوم الشعر وأولاها بالعناية .

- ثم لما اشتدت الخصومة النقدية بين العلماء حول بعض شعراء العربية ظهرت كتب نقدية توازن بين هؤلاء الشعراء من ذلك كتاب الموازنة لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي ، الذي وزان فيه بين شعر البحتري وأبي تمام ، وكتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي على بن عبد العزيز الجرجاني ت ٣٦٦ هـ.
وفي هذين الكتابين إشارات كثيرة إلى بعض الفنون البلاغية :كالاستعارة والتشبيه والكناية والتجنيس والمطابقة .
- ثم توالت الكتب والمؤلفات التي تحمل في ثناياها مادة بلاغية ضخمة أفاد منها الإمام عبد القاهر والبلاغيون من بعده في إرساء قواعد البلاغة وبناء صرحها :
منها كتاب سر الفصاحة لابن سنان ، وتلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي ، وإعجاز القرآن الباقلاني ، والنكت في إعجاز القرآن للرماني والعمدة لابن رشيق القيرواني وغير ذلك .

المحاضرة السادسة

المرحلة الثانية من مراحل نشأة البحث البلاغي وتطوره

المرحلة الثانية :

مرحلة : نضج البلاغة واكتمالها:

- اكتمل صرح البلاغة على يدي الإمام عبد القاهر الجرجاني الذي وضع نظريتي علم المعاني وعلم البيان في كتابيه دلائل الإنجاز وأسرار البلاغة .
- فلعبد القاهر مكانة عظيمة في تاريخ البلاغة العربية ، حيث دوت شهرته في الآفاق ؛ وذلك لما امتاز به عن سابقيه بأنه جمع ما تفرق قبله من علوم البلاغة، واستطاع بذكائه وثاقب نظره وضع قواعد البلاغة ، وبناء صرحها على أساس متين من الأصول والقوانين التي استقرت بشكل متكامل وفي إطار شامل مدعماً ذلك بالشواهد والأمثلة الكثيرة التي ساقها في بيان عذب وأسلوب بليغ ، فلم يكتف عبد القاهر في كتابيه بتعقيد القواعد وتقنينها ، بل حرص مع ذلك على ضرب الأمثلة حتى تتضح فنون البلاغة حق الوضوح وتتمثل في الأذهان خير تمثل .
- كما يعزو إليه الفضل في أنه قضى على كثير من الثنائيات التي سيطرت على فكر البلاغيين السابقين وأبرزها : ثنائية اللفظ والمعنى ، وثنائية التعبير والجمال . كما أنه نظر إلى اللغة نظرة جديدة.

- فعبد القاهر هو مؤسس البلاغة الذي وضع أصولها وأرسى قواعدها ، ولم يحدث بعده أي تغيير أو إضافة جوهرية تذكر في علمي المعاني والبيان ل؛ أنه استطاع أن يستنبط من ملاحظات البلاغيين قبله كل القواعد البلاغية فيهما .
- ولقد فتن البلاغيون بعبد القاهر وعلمه الغزير ، فراحوا يرددون كلامه ويقفون عنده ولا يتجاوزنه ، وأصبح لكتابيه مكانة مرموقة جعلت كل من جاء بعده يعتمد عليها ويقتبس من مسائلها ويدور في فلكها لا يحيد عنها .
- وعلى كل ، فإن كتابيه : أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز ، لهما فائدة عظيمة ؛ حيث أصبحت فنون البلاغة فيهما ذات كيان خاص ، بعد أن كانت قبلها مبعثرة في كتب اللغة والأدب والنقد وإعجاز القرآن ، وقد ضمنهما مؤلفهما علماً دقيقاً غزيراً ،بنى بهما للبلاغة صرحاً عالياً ، وأصبح بسببهما إماماً عظيماً ، كما ظهر فيهما بوضوح اعتماد عبد القاهر على المنهج اللغوي في تحليل النصوص ، وذلك من خلال إرسائه لنظرية النظم التي أثبتت أن القرآن الكريم معجز بنظمه وصياغته ، كما أنه فهم معاني النحو فهماً جديداً لم يقتصر على القواعد التقليدية السطحية المتمثلة في ضبط أواخر الكلمات.

- ثم جاء بعد القاهر الجرجاني جارالله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) الذي قام بدراسة ما كتبه عبدا لقاهر في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، واستطاع أن يهضم ما فيهما من مسائل بلاغية ، ويتمثلهما خير تمثيل ، وأن يطبق ذلك كله في كتابه (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) ، الذي اهتم فيه بيان الأسرار البلاغية في القرآن ، وبإظهار إعجازه عن طريق بيان وفاء دلالته على المراد مع مراعاته مقتضيات الأحوال ، ويكشف ما فيه من خصائص التصوير ولطائف التعبير في البيان القرآني .
- وعلى الرغم من أن هذا الكتاب يعد من كتب التفسير ، فإنه يعد في الوقت ذاته من كتب البلاغة العربية ؛ لأنه مليء بمسائلها ولطائفها المتناثرة داخل آرائه في تفسير آي القرآن الكريم.

المحاضرة السابعة
المرحلة الثالثة من مراحل نشأة البحث البلاغي وتطوره

المرحلة الثالثة
مرحلة التقنين والتعقيـــد :

- تبدأ هذه المرحلة بظهور أبي يعقوب يوسف السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦هـ ، الذي اهتم بالفلسفة والمنطق ، فقام بتقنين قواعد البلاغة مستعيناً في ذلك بقدراته المنطقية على التعليل والتعريف والتفريع والتقسيم ، وبذلك تحولت البلاغة على يديه إلى مجرد قواعد وقوانين صيغت في قوالب منطقية جافة ، باعدت بينها وبين وظيفتها من إرهاف الحس وإمتاع النفس ، وتربية الذوق وتنمية الملكات .
- وقبل السكاكي ظهر فخر الدين الرازي ؛ وهو من أوائل من اتجهوا إلى الاختصار والتخليص فهو يعد مرحلة انتقالية ، حيث اهتم بإدخال المنطق والفلسفة في علوم البلاغة ، حيث قام بتلخيص كتابي عبد القاهر في كتابه نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز .
- وشهرة السكاكي تعود إلى القسم الثالث من كتابه مفتاح العلوم ؛ الذي جعله لعلم المعاني وعلم البيان وملحقاتها من الفصاحة والبلاغة ، والمحسنات اللفظية والمعنوية ، وقد نال هذا الكتاب شهرة فائقة في ميدان البلاغة ؛ حيث فتن به العلماء إلي حد جعلهم ينسون أنفسهم وينكرون ملكاتهم ، ولهذا ظلوا قروناً عديدة- ابتداء من القرن السابع الهجري حتى القرن العاشر الهجري تقريباً - عاكفين على دراسته وشرحه وتلخيصه ، حتى لكأنه لم يؤلَّف في البلاغة كتابٌ غيره ، فاستأثر باهتمامهم وعنايتهم.
- وقد أخذ رجال هذه المدرسة وعلماؤها يعمدون في دراساتهم البلاغية على النظريات والتقسيمات والقواعد والتعريفات التي أصبحنا نراها شائعة في مصنفاتهم من الشروح والحواشي والتقارير والتلخيصات ، ونحوها التي صنفت على هدي كتاب السكاكي والقزويني .

- فمن الذين قاموا بشرح مفتاح العلوم للسكاكي عدد كبير من العلماء منهم : قطب الدين الشيرازي ٧١٠هـ في كتاب سماه مفتاح المفتاح ، ومظفر الخلخالي ٧٤٥ هـ في كتابه شرح المفتاح ، والسيد الشريف الجرجاني ٨١٦هـ ، وابن كمال باشا ٩٤٠هـ ألف شرح المفتاح .
- ومنهم أيضاً ابن يعقوب المغربي ١١١٠ هـ في كتابه مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ، وسعد الدين التفتازاني وضع له شرحين المختصر والمطول .

ومممن عنوا بتلخيصه :

- بدر الدين مالك ٦٦٨هـ ، حيث اختصره في كتاب المصباح في المعاني والبيان والبديع ، وجلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني ٧٣٩هـ ، حيث لخصه في كتاب سماه تلخيص المفتاح ، وعضد الدين الإيجي الشيرازي ٧٥٦هـ في كتابه الفوائد الغياثية .
- ولعل أشهر هذه الشروح وأوسعها شهرة بين العلماء في المشرق كتاب تلخيص المفتاح للقزويني ؛ وهذا الكتاب بدوره حظي لدى العلماء باهتمام بالغ ؛ فمنهم من شرحه ومن لخصه ، ومنهم من نظمه .

- وممن نظمه شعراً جلال الدين السيوطي المتوفي سنة ٩١١ هـ في كتابه عقود الجمان ، وعبد الرحمن الأخضري ،وقد سمى نظمه الجوهر المكنون في الثلاثة فنون ، وغيرهم كثير .
- ولاتزال خزائن الكتب والمخطوطات تضم في جنباتها عدداً كبيراً من الكتب التي دارت حول شرح مفتاح العلوم أو حول كتاب التلخيص للقزويني .
- فكل من جاء بعد السكاكي سار على نهجه ونسج على منواله ، واستعان بآرائه البلاغية وتقسيماته ؛ لأنها لا تخرج عن كونها ترديدا وتكراراً لمادته ، فهي محاولات قصد بها الإيضاح والتبسيط عن طريق الإيجاز والتلخيص، وإذ هي من حيث لا يدري أصحابها قد زادت المفتاح صعوبة على صعوبة ، وأسهمت في ابتعاد دارسي البلاغة العربية عن تأمل النص وتذوقه ، كما أنها أفقدت البلاغة العربية كثيراً من مائها ورونقها وبهائها.

- ولا شك أن هذه الشروح والتلخيصات والمنظومات تدل على عناية أصحابها منذ عصر السكاكي وما بعده بالمناقشات العلمية والمماحكات اللفظية دون العناية بتربية الذوق ففقدت البلاغة بذلك هدفها الرئيس .

- وعلى أية حال هذه الكتب التي صنفها العلماء أرادوا بها خدمة البلاغة والنقد إلا أنها عجزت عن أن تعلم نقداً أو بلاغة ، وهي بلا شك دالة على عناية أصحابها بمسائل العلم وتوسيع القول فيه ، وإن كانوا في الوقت نفسه عاجزين على القدرة على التجديد والابتكار .

- وإذا أردنا أن نقارن ما كانت عليه البلاغة العربية في عصورها الزاهية ، وخاصة في عصر عبد القاهر ، وبين ما صارت إليه في العصور المتأخرة ن، رى أن البلاغة قد ازدهرت واكتمل صرحها وتوهجت شعلتها على أيدي علمائها الأوائل ، الذين قاموا بإحيائها وإرساء معالمها ، ثم نرى كيف جفت وذبلت وخبت شعلتها على أيدي علماء البلاغة المتأخرين ، مثل السكاكي ومن سار على نهجه واحتذى حذوه .
- وقد ظل هذا حال البلاغة تزداد مع الأيام ضعفاً وبعدا عن هدفها المنشود ، حتى قيض لها الله سبحانه وتعالى من علماء العرب في العصر الحديث من قام بإحيائها ، فأعاد إليها وجهها الناصع الناضر .

المحاضرة الثامنة
الفرق بين البلاغة والفصاحة

أولاً : مفهوم الفصاحة :

- انطلق العرب القدماء في درسهم اللغوي للفصاحة والبلاغة من مفهوم تنظيري ذوقي، ومن ثم مارسوه تطبيقاً عملياً في الكلمة المفردة والمؤلفة قبل أن يعرفوا مرحلة الترجمة عن الثقافة اليونانية... وكان النص الذي يشتمل على الكلمة أساس توجيههم إلى دلالتها المباشرة وغير المباشرة...
- وحين نشأت نظرات بلاغية فطرية في العصر الجاهلي ثم تطورت في العصور التالية كان النص وحده صاحب السيادة في التحليل؛ فتوقفوا عند الدلالة الحقيقية والدلالة المجازية... وأدركوا أن هذه الكلمة أفصح من تلك في هذا الموضع دون ذاك؛ علماً أن العرب يتميزون بسليقة فطرية ذات قدرة عالية على براعة الكلم حتى قال (صلى الله عليه وسلم):" أنا أعربكم: أنا من قريش، ولساني لسان بني سعد"؛ أي أفصحكم؛ وقال ، عليه الصلاة والسلام : [أُعطيتُ جوامع الكلم، واختُصر لي الكلام اختصاراً].
- ولعل الدرس البلاغي للفصاحة والبلاغة وغيرهما يدين بالفضل للدراسات القرآنية... واللغوية في وقت واحد؛ ومن ثم تطور على يد من تأثر بالثقافة اليونانية... وانتهى إلى تقعيد سافر؛ ذهب ببهاء الذوق البلاغي والنقدي واللغوي المرهف والواعي الذي سما به الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ)، بينما أضرَّ به كثيراً ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ)، ومن حذا حذوه كالسكاكي(ت ٦٢٦ه) في تقنينه بقواعد صارمة.

- وقد تحدث ابن سنان الخفاجي حديثاً مطولاً عن فصاحة الكلمة وبلاغتها باعتبارها المفرد المُوَقَّع الدال على معنى، وباعتبارها المؤلف وحدد لهما شروطاً خاصة... ظلت مدار الباحثين بعده؛ وإن كان هو قد استمدها ممن سبقه، وأطَّرها في أشكال محددة.
- وهذا ما سنكشف عنه فيما بعدُ؛ إذ اتضح لنا أن للفصاحة مفهوماً لغوياً واصطلاحياً؛ وقد استعمل في اللغة قبل استعماله في النقد والبلاغة؛ وتعددت معانيه في ذلك كله. ومما جاء في اللسان (فَصح) أن الفصاحة- في اللغة-: البيان. فصُح الرجل فصاحة فهو فصيح من قوم فُصحاء وفِصاح وفُصُح، وامرأة فصيحة من نسوة فِصاح وفَصائح. ورجل فصيح وكلام فصيح، أي بليغ، ولسان فصيح: طَلْق.
- وأفْصح يُفصِح إفصاحاً: أبان وأوضح... وفَصُح الأعجمي فَصاحة: تكلم بالعربية وفُهم عنه... وتفَصَّح: تكلَّف الفصاحة... والفصيح في كلام العامة: المُعَرَّب. والفصيح في اللغة: المنطلق اللسان في القول، الذي يعرف جيد الكلام من رديئه.
- وبهذا فإن الفصاحة- في الاصطلاح- تعني الإبانة والظهور والإيضاح والبراعة والبلاغة في اللفظ المفرد والمؤلف
- فالفصاحة ملكة يقتدر بها على التعبير عن المشاعر والحاجات... وهي لذلك تمام آلة البيان.
- ويعد الجاحظ أول من قصَر مفهوم الفصاحة على العرب على اعتبار أنهم أفصح من غيرهم؛ في الوقت الذي يكون أحدهم أفْصح من الآخر.

- وقال يحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٩هـ) في كتابه (الطراز): "اعلم أن الفصاحة في الألفاظ المفردة يجب أن تكون مختصة بخصائص: الخاصة الأولى؛ أن تكون اللفظة عربية قد تواضع عليها أهل اللغة؛ لأن الفصاحة والبلاغة مخصوصان بهذا اللسان العربي دون سائر اللغات من الفارسية والرومية والتركية، فلا مدخل لهذه الألسنة في فصاحة وبلاغة».

- والحقيقة أن الفصاحة ليست ملكاً لأمة دون أمة؛ وإن كانت تقع لفرد دون فرد؛ ويقع الفرق فيها في الأحسن والأبرع والأكثر إثارة وجمالاً... ويؤكد هذا قولـه تعالى: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً ﴾(القصص ٣٤/٢٨). وإذا كانت كلمة (أفصح) هي الكلمة الوحيدة في القرآن الكريم من مفردات الفصاحة، فإن الآية تثبت وجودها في أمم أخرى غير العرب... ولكن العربية في طبيعتها ومفرداتها وأساليبها التي انتهت إلينا، وفي إطار ما عرفناه من لغات الآخرين تدل على أنها "أوسع مناهج؛ وألطف مخارج؛ وأعلى مدارج؛ وحروفها أتم، وأسماؤها أعظم، ومعانيها أوغل، ومعاريضها أشمل، ولها هذا النحو الذي حِصَّتُه منها حِصَّة المنطق من العقل. وهذه خاصة ما حازتها لغة على ما قرع آذاننا، وصحب أذهاننا من كلام أجناس الناس؛ وعلى ما ترجم لنا أيضاً من ذلك".
- وهذا ما نلمحه عند ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) في قوله: "فإن كل لغة من اللغات لا تخلو من وصفي الفصاحة والبلاغة المختصين بالألفاظ والمعاني؛ إلا أن للغة العربية مزية على غيرها، لما فيها من التوسعات التي لا توجد في لغة أخرى سواها".
- بهذا كله قد نكون أوضحنا مفهوم كلمة الفصاحة التي تعني البيان والظهور والبلاغة في الكلام وعند القائل، وفي صفة الأشخاص.

- ويلاحظ أن (الفصاحة) جاءت ملازمة لكلمة البلاغة التي دار معناها غالباً على معاني الفصاحة عند كثير من البلاغيين القدامى... حتى أصبحتا صنوين في الدراسات البلاغية عند كثير منهم... ثم أخذوا يفرقون بينهما فيما بعد...
- ولعل الدرس البلاغي في التفريق بينهما قد أفاد كثيراً من الدراسات التي بدأت تظهر لخدمة القرآن الكريم؛ ابتداء من كتاب (معاني القرآن) للفراء (ت ٢٠٦هـ) وكتاب (مجاز القرآن) لأبي عبيدة (ت ٢١٠هـ)، وكتاب (نظم القرآن) الذي لم يصل إلينا حتى الآن للجاحظ (ت ٢٥٥هـ).
- أما ما وصل إلينا من كتب الجاحظ فكلها تؤكد أنه لم يضع حداً فاصلاً بين الفصاحة والبلاغة على الرغم من أنه ساق جملة من تعريفات البلاغة في كتابه (البيان والتبيين)، ولم يُعرّف البلاغة، وكأنه ارتضى بتعريف ابن المقفع لها بعد قولـه: "لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظُه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك" ثم أورد تعريف ابن المقفع لها حين سئل: "ما البلاغة؟ قال: البلاغة اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة". وعلى الرغم من ذلك فالفصاحة لديه مرتبطة بسلامة النطق وصحة مخارج الألفاظ، ونقاء اللغة.
- وكذلك كان ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) فلم يشر إلى الفصاحة، وتوقف كالجاحظ عند قضية اللفظ والمعنى، واتفق معه على أن الألفاظ أحق بالرعاية والاهتمام وإن لم يهمل العناية بالمعاني؛ ولكنه نحا بدراسة الألفاظ والأبنية منحىً تطبيقياً جاعلاً النص الأدبي مدار حديثه في ضوء أشعار بعينها في كتابه (الشعر والشعراء) ثم اتجه بها اتجاهاً بلاغياً في كتابه (تأويل مشكل القرآن).
- ولو تتبع المرء ما كتبه القدماء كالمبرد (ت ٢٨٥هـ) في كتابه (الكامل في اللغة والأدب) وغيره، وثعلب (ت ٢٩١هـ) في كتابه (قواعد الشعر) وابن المعتز (ت ٢٩٦هـ) في كتابه (البديع) لما ظفر بشيء واضح ودقيق يفرق بين الفصاحة والبلاغة. كما أن الفصاحة ظهرت مرادفة للبلاغة عند قدامة بن جعفر (ت ٣٣٨هـ) في كتابه (نقد الشعر).

ثانياً : مفهوم البلاغة:

- البلاغة- لغة-: الانتهاء والوصول، وبلغ الشيء يبلغه بلوغاً وبلاغاً: وصل وانتهى، وتبلَّغ بالشيء: وصل إلى مراده. والبلاغ: ما يُتَبَلَّغ به؛ ويُتَوَصَّل إلى الشيء المطلوب، والبلاغ: ما بلغك. والإبلاغ: الإيصال... بلغت المكان بلوغاً: وصلت إليه... والبَلْغ والبِلْغ: البليغ من الرجال، ورجل بليغ: حسن الكلام فصيحه؛ يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه، والجمع بُلَغَاء ، وقيل: البلاغة: الفصاحة.

- ولذا لم يتفق الناس على مفهوم البلاغة؛ فقيل: "للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل، وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام. وقيل للرومي: ما البلاغة: قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة. وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة".

- ثم يسوق الجاحظ جملة من الأقوال التي تدل على اتساع مفهوم البلاغة تبعاً للمقام ومقتضى الحال؛ فأثبت أنها الإيجاز، أو الانطلاق بالكلام على الفطرة، أو أن تجيب فلا تبطئ وتقول فلا تخطئ.

- وإذا كان الزمخشري قد ذهب إلى أن بلاغة الكلام المؤثر تتجه اتجاهاً نفسياً ، فإن الراغب الأصبهاني يجريه على القائل وعلى الكلام ذاته حين فسر قولـه تعالى: ﴿وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾ (النساء ٤/٦٣). وذهب في تفسيره لكلمة بليغ إلى وجهين:

١- الكلام بذاته بليغ لأنه صواب في لغته، مطابق لمعناه المراد منه، وصادق في طبيعته ومضمونه؛ وإذا فقد إحدى هذه الصفات كانت بلاغته ناقصة.

٢- الكلام بليغ باعتبار قائله والمقول له... فالقائل يورد أمراً على وجه يقبله المقول له.

- واتجه أبو هلال العسكري إلى إثبات رأيين للفصاحة والبلاغة معاً:

الأول: تَرْجِعُ الفصاحة والبلاغة إلى معنى واحد؛ فكل منهما للإبانة عن المعنى والإظهار له.

الثاني: الفصاحة والبلاغة مختلفتان، فالفصاحة من تمام آلة البيان؛ مما يجعلها مقصورة على اللفظ، والبلاغة إنما هي إنهاء المعنى إلى القلب، فهو مفهوم مقصور على المعنى. ولا شيء أدل على ذلك عنده من أن الببغاء يسمى فصيحاً ولا يسمى بليغاً، وليس له قصد إلى معنى يؤديه... ومن هنا نفذ إلى حديث بديع عن النظم المستمد من ماهية فصاحة اللفظ وبلاغة المعنى.

- ولا يشك أحد في أن ابن سنان الخفاجي قد أفاد من أبي هلال العسكري حين قرر أن الناس قد اضطربوا في كُنْه الفصاحة والبلاغة ثم رأى أن "الفصاحة مقصورة على اللفظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني... وكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغاً." ثم وضع شروطاً لفصاحة اللفظ المفرد، وفصاحة اللفظ المؤلف حتى يغدو بليغاً، وتابعه فيها عدد من البلاغيين بعده، فقال القزويني- مثلاً-: "والبلاغة في المتكلم ملكة يُقْتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح والبلاغة في الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فَصاحته».

- ولا بأس أن نقرر هنا ما قرره ابن عبد ربه في تعريفها "البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ومقام الكلام عند تفاوته. "ذلك أن هذا القول إنما هو تعريف لغوي ولساني لعمل الأسلوب في انسجامه مع السياق المعبر عنه، ومراعاته للمتغيرات عند تفاوت أصناف الخطاب ومستويات المتكلمين".

- فالبليغ: من يحوك الكلام على حسب الأماني، ويخيط الألفاظ على قدود المعاني". ورحم الله الجاحظ حين قال: "والأسماء في معنى الأبدان والمعاني في معنى الروح. اللفظ للمعنى بدن والمعنى للفظ روح. ولو أعطاه الأسماء بلا معانٍ لكان كمن وهب شيئاً جامداً لا حركة له، وشيئاً لا حِسَّ فيه، وشيئاً لا منفعة عنده".

- وبعدُ، فإن الدراسة البلاغية النصية عند العرب اعتمدت على الأبيات المفردة حتى مجيء الباقلاني (ت ٤٠١ هـ) وابن شرف القيرواني (ت ٤٦٠ هـ) فدرسا النص كاملاً منطلقين في ذلك من التأثر بالنص القرآني.

المحاضرة التاسعة

فصاحة اللفظ المفرد ، واللفظ المركَّب (المؤلَّف)

أولاً : فصاحة اللفظ المفرد :

- في ضوء الدراسات البلاغية التي وصلت إلينا يتضح بجلاء أن الفصاحة تكون للفظ المفرد غالباً، بينما تكون البلاغة في اللفظ المفرد والمؤلف...

- ونرى أن فصاحة الكلمة تكمن فيها منفردة ومؤلفة ولكل منها أبوابه، فالفصاحة كما قال ابن سنان الخفاجي نعت للألفاظ إذا وجدت على شروط عدة؛ وكلها تكسبها جمالاً وبهاء وتأثراً في النفس. وهذا يدعونا إلى الحديث عن فصاحة اللفظ المفرد؛ في إطار جمالية الكلمة واستخدامها؛ وسنتحدث عن فصاحة اللفظ المؤلف في إطار جمالية الجملة.

- وإذا كان أصحاب البلاغة قد أرجعوا مفهوم البلاغة والفصاحة إلى جوهر اللفظ المفرد في دلالته الوضعية فإنهم ذكروا له ثمانية أشياء؛ عرض لها ابن سنان في كتابه (سر الفصاحة):

١-أن تكون حروف الكلمة متباعدة المخارج... فالحروف أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر. فتقارب مخارج اللفظ يبعده عن الجمال كما في كلمة (الهُعْخع)، إذ روي عن الخليل قوله: "سمعنا كلمة شنعاء هي (الهُعْخع) وأنكرنا تأليفها".

٢-التأليف المختار لبناء الحروف المتباعدة في الكلمة؛ سواء تساوت أم لا ، كما في قول الشاعر :

مبارك الاسم أغرُّ اللقب   *   كريم الجرشَّي شريف النسب

٣-ألا تكون الكلمة غريبة متوعرة أو وحشية.

تقع الغرابة والتوعر في الاستعمال وكثرته، أو في بنية الكلمة، أو بيئتها؛ أو موضوعها، أو ثقافة أهلها.

٤-ألا تكون الكلمة عامية مبتذلة؛ وينقل ابن سنان الخفاجي عن الآمدي (ت ٣٧٠هـ) وغيره جملة من الألفاظ العامية كقول أبي تمام:

فالفعل: تفرعن، مشتق من فرعون، وهو من ألفاظ العامة .

٥- جريان الكلمة على المذهب اللغوي الصحيح، وألا تكون شاذة عما تواضع عليه العرب من أبنية.

وقد دخل في هذا القسم كل ما أنكره أهل اللغة، وعابوه على الشعراء من ألفاظ جديدة، أو أنها غير جارية على القياس، أو أنها غير عربية، ومن ذلك قول البحتري:

يشق عليه الريحُ كلَّ عشيّةٍ   *   جيوبَ الغمام بين بِكْرٍ وأيِّم

فوضع الأيم مكان الثَّيِّب، وليس الأمر كذلك، إنما الأيم الَّتي لَا زوج لها؛ بكراً كانت أو ثيباً.

٦-ألا تعبر الكلمة عن أمر آخر يكره ذكره؛ ولم توضع له في الأصل. فإذا أوردت ولم يقصد بها المعنى الأصلي قبحت... كقول أبي تمام:

متفجِّرٌ نادمتُه فكأنَني   *   للدلو أو للمرزمين نديمُ

فالدلو معروف؛ وهو لاستخراج الماء من البئر، ولكن أبا تمام استعمله هنا اسماً لبرج من بروج السماء... فهو يمدح رجلاً بالجود فيقول لـه: أنت كالدلو كرماً والمرزم جوداً... وكلاهما من نجوم السماء التي يرتبط بها المطر... ولكن الاستعمال للدلو على هذا الوجه غير مألوف.

٧-اعتدال عدد حروف الكلمة؛ فمتى زادت على الأمثلة المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة. فكثرة حروف الكلمة إذا استعملت في الشعر خاصة كانت قبيحة جداً، ولو كانت عربية كما في (سويداواتها) من قول المتنبي:

إن الكريمَ بلا كرامٍ منهمُ   *   مثلُ القلوبِ بلا سويداواتِها

٨- تصغير الكلمةً في موضع يعبر به عن شيء لطيف أو خفي أو قليل... فكل تصغير ينتهي باللفظ إلى نكتة بلاغية يزيد حسنه ويجمل موقعه، ويوحي بأثر نفسي محبب... ومن ذلك قول عمر بن أبي ربيعة:

وغاب قميرٌ كنتُ أرجو طلوعه   *   وروَّح رُعيانٌ ونوَّمَ سُمَّرُ

فالتصغير هنا مختار بعناية ويوحي بالود والإعزاز والدلال... فإنه جعله قميراً لأنه لم يكتمل؛ فهو هلال غاب في أول الليل.

ثانياً: فصاحة اللفظ المركَّب:

- مهما قيل في فصاحة اللّفْظ المفرد مما يبين خصائص الكلمة وجماليتها في حال الإفراد فإن أثرها الذي يقع في النفس موقع القبول ويتسق مع دلالته الوضعية يظل دون ما يكون في التأليف. فالوفاء بالمعنى والإمتاع الجمالي شرطان أساسيان يعبران بصدق عن عواطف القائل وأفكاره... وحينما يراعي المتكلم الحال والمقام والمخاطب والدقة في الاستعمال؛ فإن كل كلمة تبقى فصيحة في موضعها على الشروط التي مرت وتكتمل بخمسة أشياء ذكرها الحكماء كما قال ابن سنان: ((الموضوع والصانع والصورة والآلة والغرض)).

- وإذا كان الأمر كذلك فتأمل شروط فَصَاحة اللفظ المفرد؛ وقُسْ عليها ما يَرِدُ من الألفاظ عليك، وإنك تعلم الفصيح منه... على الرغم من أنهم خلطوا بين مفهوم الفصاحة والبلاغة والبيان والجمال كما نراه في قول ابن الأثير: "شيئان لا نهاية لهما، هما البيان والجمال.

- وهذا كله لا يكتمل إلا بمعرفة فصاحة اللفظ في التأليف... فالتأليف يؤدي إلى سياق، والسياق يوحي بأشياء كثيرة في فصاحة الكلمة وتأثيرها... وهذا يشكل وعياً جمالياً بالكلمة في نطقها وفي استعمالها... ويصبح الجمال الفني قائماً على معايير الانسجام والتلاحم الدقيق في المعنى والتركيب والتناسب بينهما، مع مراعاة الحالة النفسية.

- وقد تجتمع الفصاحة بشروطها الثمانية في اللفظ المفرد لكن التأليف المختار في التركيب وفي موقعه الإيقاعي، واتساقه المعنوي، واتساع دلالته أو ضيقه يقلل من فَصَاحته؛ إن لم يستهجن... وقد تكون الكلمة ثقيلة في اللفظ أو أن مخارجها متقاربة ولكنها في التركيب تستدعيك فلا يؤخذ غيرها؛ فتمد لك الآفاق في التصور، وتجري من الإيقاع مجرى التأثير المتصاعد، كما نراه في كلمة (عسعس)، في قوله تعالى: ﴿والليل إذا عسعس؛ والصبح إذا تنفس﴾، - (التكوير ٨١/ ١٧-١٨).

- فتقارب مخارج (عسعس) في ذاتها لم يُحِلْ دون استعمالها في تركيب تأليفي يشعر ببديع التصوير وعظمة التأثير، فالظلام يطول ويلقي بثقله على الإنسان فيرسي فيها هموماً وخيالات شتى فجاءت كلمة "تَنفس" لتخرجه من حالته الكئيبة. وكذلك كلمة (ضِيْزى) في قوله تعالى: ﴿تلك إذاً قِسمة ضِيْزى ﴾- (النجم ٥٣/٢٢). فلو استخدم مكانها أي لفظ لما وقع موقعها.

- ولهذا فإننا حين نراعي شروط الفصاحة في اللفظ المفرد كما أثبتها البلاغيون فإن هذه المراعاة تقتضي أن ينظر إليها متكاملة في بلاغة التأليف وفصاحته...

- ولا شيء أدل على هذا من أن ابن سنان الخفاجي أعاد الأقسام الثمانية في اللفظة المفردة حين تحدث عن فصاحة التأليف في الكلام إلى التأليف ذاته.

- ويرى ابن سنان أن القسم الأول منها "تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج وهذا بعينه في التأليف ثم يوضح مفهومه فيقول": وبيانه أن يجتنب الناظم تكرر الحروف المتقاربة في تأليف الكلام، كما أمرناه بتجنب ذلك في اللفظة المفردة بل هذا في التأليف أقبح".

- وليس يحتاج إلى معرفة قبحه أكثر من سماعه. فأبو العلاء المعري كان متعصباً للمتنبي، ولكنه لما أنشد بين يديه إحدى قصائده، ووصل القارئ إلى البيت الآتي، قال: هذا والله شعر مُدْبِر؛ والبيت هو:

ولا الضعفُ حتى يبلغَ الضعفُ ضعفَه * ولا ضعفُ ضعفِ الضعفِ بل مثلُه ألْفُ

ومثل قول الشاعر :

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفْرٍ * وليس قربُ قبرِ حربٍ قبرُ

ولهذا كله قال الرماني: التأليف على ثلاثة أضرب: متنافر، ومتلائم في الطبقة الوسطى، ومتلائم في الطبقة العليا.... ثم أرجعها ابن سنان إلى اثنين: متنافر ومتلائم.

والثاني: التأليف المختار الحسن مع تباعد الحروف تباعداً مناسباً..."فإن هذا إنما يكون في التأليف إذا ترادفت الكلمات المختارة، فيوجد الحسن فيه أكثر، وتزيد طلاوته على مالا يجمع من تلك الكلمات إلا القليل.... فالتأليف المتواتر والمترادف يثير جمالاً قوياً... ويظل القبح في الإفراد أكثر مما هو في التأليف...

والثالث والرابع من فصاحة الألفاظ ما يتعلق بالتوعر والعامية...

وهذان الضربان يقبحان في التأليف إذا كثرا فيه... فالإسهاب في إيراد الكلام الوحشي، أو العامي المبتذل يذهب بهاء التأليف... وهناك من يرى أن التأليف للألفاظ العامية قد تكون بليغة إذا كان غرضها خطاب العامة... وإنما يجب الاحتراز من الصيغ في بعض الوجوه المذمومة.
والخامس أن تكون الكلمة جارية على العُرْف العربي الصحيح ، "فللتأليف بهذا القسم عُلْقة وكيدة لأن إعراب اللفظة تبع لتأليفها في الكلام، وعلى الموضع الذي وردت فيه.
السادس: كراهة وضع لفظ لمعنى آخر قبيح مكروه ؛ "فللتأليف فيه تعلق بحسب إضافة الكلمة إلى غيرها"، كقول الشريف الرضي:
أعززْ عليَّ بأن أراك وقد خلتْ * من جانبيكَ مقاعدُ العُوَّادِ
فإضافة (مقاعد) إلى (العواد) إضافة صحيحة، ومعنى (مقاعد)، في البيت صحيح، لكنه موافق لما يكره ذكره في مثل هذا الشأن... فالتأليف زاد قبح الكلام... ولو أفرد لما وجد فيه قبح... فلفظ (العُوَّاد) يذكرنا بالمرض وعيادة المريض.
السابع: اجتناب الكلمة الكثيرة الحروف :
ويرى ابن سنان أن كثرة الحروف تعيب اللفظ المفرد؛ وإنما يظهر قبحه في التأليف إذا تكرر كقول المتنبي:
سمُجتْ ونبّهَنا على استسماجها * ما حولها من نضرةٍ وجمالِ
فكلمة "استسماجها" رديئة لكثرة حروفها، وزاد التأليف من قبحها حين استعمل معها الفعل "سمجت".... فصار اللفظ بهما سمجاً.
الثامن: تصغير الألفاظ :
وكذلك تصغير الكلمات عنده لا عُلْقة للتأليف بقبحه وتدّني فصاحته إلا إذا تكررت ألفاظه أو ترادفت، ثم يقول: "إن تكرار التصغير والنداء والترخيم والنعت والعطف والتوكيد وغير ذلك من الأقسام، والإسهاب في إيرادها معدود في جملة التكرار، ويجب التوسط فيه، فإن لكل شيء حداً أو مقداراً لا يحسن تجاوزه، ولا يحمد تعديه.

المحاضرة العاشرة
قضية الإعجاز القرآني وأثرها في البلاغة العربية

أولاً : تمهيد:
- من الصعب جداً أن نحدد الزمن أو المكان، أو الأثر الذي استعملت فيه كلمة معجزة أو إعجاز أول مرة بهذا المعنى الديني الاصطلاحي الفني. والجدير بالذكر أنه لم يرد في القرآن نفسه لفظ معجزة أو إعجاز.
- وقد حلت كلمة (معجزة) محل مرادفاتها في أواخر القرن الثالث تقريباً.. فمن ذلك الحين أخذت كلمات برهان - -- وسلطان وآية تقل في الاستعمال في بحوث مسائل النبوة وقضايا الإعجاز.
- ولعله أول كتاب دوّن باسم (إعجاز القرآن) هو كتاب محمد بن يزيد الواسطي المتوفى سنة (٣٠٦هـ) وقد وردت فيه كلمة معجزة.
- وقد كانت معجزات الرسل السابقين حسية، ومن جنس الفن الذي اشتهر في قوم هذا الرسول أو ذاك إلى عهده ؛ ولذلك كانت معجزة موسى من جنس السحر، ومعجزة عيسى من جنس الطب وهكذا.. وجاءت معجزة النبي من جنس الفن الذي اشتهر به العرب وبلغوا به الذروة.. وهو فن البيان. ويمتاز عن غيره أن معجزة نبينا (معنوية) لأن المعجزات الحسية تزول بزوال مشاهديها زمن النبي، وأما المعجزات البيانية فهي باقية أبد الدهر.
- وقد اتفق كل من كتب في الإعجاز – وسنرى آراءهم- على أن القرآن معجزة وأنه دليل النبوة، وأن القرآن وحده معجزة دون غيره من الكتب السماوية. ولذلك تحداهم أن يأتوا بمثله.

- تحدى النبي منكريه أولاً في أن يأتوا بمثل القرآن ' وذلك في سورة الطور، فلما عجزوا تحداهم أن يأتوا بعشر سور مفتريات. وذلك في سورة هود، فلما عجزوا تحداهم في أن يأتوا بسورة من مثله في سورة يونس، ثم كرر نفس التحدي بنفس المقدار في سورة البقرة ؛ حيث جزم بأنهم لن يستطيعوا، ثم سد عليهم منافذ القول في سورة الإسراء .
- وكان معظم المسلمين في عهد النبي ومن بعده من الخلفاء الراشدين ولاسيما زمان أبي بكر وعمر لا يطيلون النظر في دراسة مسائل الدين، ولا يثيرون قضاياه المتشابهة التي تبعث على الاختلاف والجدال في الرأي.. كالقول

بالجبر أو الاختيار ومشاكل الصفات الإلهية تحرجاً.. ولضعف ثقافتهم في باديء أمرهم وانعزالهم في جزيرتهم، ولأسباب أخرى دينية بحتة.. إذ إنهم كانوا ينظرون إلى القرآن نظرة تقديس ورضى.. على أنه كتابهم الديني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

- وقد درس الأدباء قضية الإعجاز في علم البلاغة الذي انبثق- ولاشك من العناية بدراسة القرآن من ناحية جماله الفني.. ولا ريب أن فكرة إعجاز القرآن كانت من أقوى البواعث على نشأة علم البلاغة.. فألف الجاحظ كتاب (نظم القرآن) –واسمه يدل على محتواه- ولهذا عد الجاحظ أول المؤلفين في البلاغة. وكتابه (البيان والتبين) يصلح لأن يكون حجة على ذلك فيما حمل من أبحاث ونظرات هي: من صميم فنون البلاغة. ويذهب الكثيرون إلى أن الجرجاني هو أول من ألّف في البلاغة.. ولعله هو أول من نظم الأفكار التي قيلت في الموضوع. وجعلها قواعد علمية.. وكتابه (دلائل الإعجاز) يصلح دليلاً على أن علم البلاغة نشأ من فكرة الإعجاز ' وكذلك في كتابه أسرار البلاغة. ويناقش الجرجاني في أولهما مسائل في البلاغة والنحو ويذكر بأنه ليس في استطاعة أحد أن يدرك إعجاز القرآن إذا لم يحسن التمييز بين الأشكال المختلفة للتعبير ويتذوق جمالها.

- والذي مهد للجرجاني السبيل إلى تأليفه كتاب دلائل الإعجاز تأليف محمد بن يزيد الواسطي الذي مر ذكره.. وسنعيد الكرة عليه.
- وجاء الفخر الرازي (٦٠٦هـ) واستفاد من نظرية الجرجاني في النظم بشكل واضح في كتابه: (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز).
- ومن أشهر من ألّف في الإعجاز على نهج الجرجاني ابن أبي الإصبع القيرواني (٦٥٤هـ) والقرطاجني (٦٨٤ه) والزمخشري في القرن الخامس الهجري.
- ولابد من القول بأن كلمة (إعجاز) أضحت تطلق- مع مرور الأيام على علم البلاغة. فهذا غياث الدين لطف الله يضع كتاباً في البلاغة. ويسميه (الإعجاز في علم الإيجاز) فلا يتكلم فيه إلا على المعاني والبيان.. وأن الإعجاز إذا أطلق يراد به البلاغة نفسها.
- وبعد فليست هذه الجماعات الأربع- التي بحثت مسألة الإعجاز مستقلة متباينة أبداً فقد يجمع الرجل بين الأدب والاعتزال كالجاحظ وقد يجمع بين الاعتزال وعلم الكلام والتفسير كالزمخشري، ونراهم جميعاً يستمدون البراهين بعضهم من بعض.
- ويبدو أن أقوم الطرق في البراهين على الإعجاز وأحسن الوجوه في تعليله ما جاء متأخراً منها في الزمن. وقد تكلم المفسرون فيه بعد علماء الكلام وتكلم فيه هؤلاء بعد المعتزلة وآخر من تكلم فيه المؤلفون في علم البلاغة من الأدباء وهم خير من تكلموا وأكثرهم توفيقاً. - كالباقلاني والجرجاني وغيرهما.

ثانياً : أبرز العلماء والبلاغيين الذين تناولوا قضية الإعجاز القرآني :

- بدأت الدراسات القرآنية بمحاولات فردية متفرقة للوقوف على النواحي اللغوية المحدودة، أو العقلية لأسلوب القرآن – وكان هذا طبيعياً- لأن الأمة الناشئة باديء ذي بدء في حاجة إلى تشريع لإرساء قواعدها أولاً.. ومن أجل ذلك قامت البحوث الفقهية في التفسير.. وتناولت النواحي اللغوية، ولكن على نطاق ضيق، فأضحت دراسات ابن عبيدة مرجعهم كلهم، فكانت هناك محاولات لجمع مفردات لغوية.. وجمع شواهد للاستدلال بها على هذه المعاني في القرآن.

(المجاز عند أبي عبيدة) :

- بدأ فعلاً بحث المجاز في أواخر المائة الثانية بتأليف (مجاز القرآن) عام (١٨٨هـ) وهو أول ما ألّف في البيان.
- كان أبو عبيدة يعتبر (المجاز لوناً من الخروج عن نطاق التعبير العادي إلى طريق آخر من التعبير فيه فضل وتأنق.. ولعله هو من الأوائل الذين استرعوا انتباه العلماء إلى أوجه المجاز في القرآن، ولكن لم يتسع نطاقه في تلك الحقبة. اللهم إلا ما تملي عليهم الحاجة في معرفتهم للفقه واللغة.
- إلا أن الإلمام بالأدب والثقافات العربية والأجنبية ساقهم –رويداً رويداً- إلى محاولة النظر في أساليب القول في القرآن والشعر..
- فأبو عبيدة إذن – الذي تطرق للمجاز في القرآن- قد مهد السبيل من بعد للدراسات الأخرى للقرآن، وآثار من أتى من بعده للكشف عن فنون التعبير في كلام العرب، وبحوث لغوية وقرآنية.

- وقد أشرنا إلى أن القرآن كان الحافز الأول لحركة النقل الأدبي ودراسات البلاغة، وقضايا الأدب، وأن الدراسات النقدية خضعت للمنهج القرآني، وأن القرآن احتضن طريقة العرب في النقد، وهو المذهب الجديد الذي برز في القرن الرابع، مقابلاً لمذهب البلاغيين، وأصحاب البديع. وأخذ به نفر من أعلام النقاد في القرآن –كالباقلاني ، وفي الشعر كالآمدي والقاضي الجرجاني.
- والحقيقة أن أول من تعرض للصور البيانية في القرآن (أبو عبيدة) وأن أول من وضع القواعد للاستعارة ابن قتيبة، وأن الرماني قد تمم بحوث ابن قتيبة في الصور البيانية على أسس جمالية ونفسية قريبة من البحوث الحديثة: إذ راعى صلة الصورة في الاستعارة والحواس المختلفة، وأكد دور التعبير في إثارة العواطف والانفعالات عن طريق مخاطبة الحواس، فقد تنبه إلى اعتماد الاستعارة أحياناً على حاسة البصر- وهي مقدمة الحواس المقدّرة للجمال. والتي تدركه وتنقله إلى النفس.. لن نمر قبل أن نثبت أن التشابه بين هذه الآراء وأحدث آراء الغربيين –في هذا الصدد- بيِّنَ بشكل يدعو إلى الإعجاب!
- والقرآن يعتمد على الصور البصرية في أسلوبه، فيعمل على إثارة الإحساسات الثانوية ؛ انظر إلى قوله تعالى: "والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة..".
- ومن هذه الآية وأضرابها نستدل على مبلغ اعتماد أسلوب القرآن على الأمثال والتمثيل في الوعظ والإرشاد الأخلاقي.. بدلاً من الأسلوب الجاف أو الصريح..؛ كما اعتمدت الصورة القرآنية على حاسة السمع، وهو ما أشار إليه الرُّماني في تفسير جمال قوله تعالى: "فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا".

(الرمـــــاني) : (صاحب رسالة النكت في إعجاز القرآن) :

- أما الرماني المتوفى سنة ٣٨٤ وقيل سنة ٣٨٦ هـ ، فإننا نراه على قصر بحثه، واقتضاب حديثه، يقدم لنا في رسالته حديث البلاغة العربية بعد أن يقول في مقدمتها:
- وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات: ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة ، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة.
- فأما البلاغة فيه على ثلاث طبقات: منها ما هو في أعلى طبقة. إلخ.
- ونراه بعد ذلك يعرف البلاغة أنها: "إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، فأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن.." إلخ.
- ويقول: "إنها في الإيجاز وفي التشبيه وفي الاستعارة وفي التلاؤم، وفي الفواصل، والتجانس، وفي التصريف، وفي التضمين، وفي المبالغة، وفي حسن البيان".
- ويختتم بحثه هذا الذي وفاه في حديث علوم البلاغة العربية من تشبيه، واستعارة، وإيجاز، وتلاؤم فواصل إلى تفصيل ما قدم به من وجوه إعجاز القرآن في المواضع السبع التي رأى أن الإعجاز لا يتعداها، ولا يخرج عن دائرتها.

(الخطابي المتوفى سنة ٣٨٨ هـ) : صاحب كتاب بيان إعجاز القرآن) :

- ولد أبو سليمان: محمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي سنة ٣١٩، وتوفي سنة ٣٨٨هـ، وهو من أعلام الفكر الإسلامي في القرن الرابع الذين امتازت كتبهم بغزارة المادة وعمق الفكرة، ودقة الاستنباط وروعة البيان، وظهرت فيها شخصيتهم واضحة المعالم، بينة القسمات. ومن كتب الخطابي الجليلة: كتاب (غريب الحديث) و(معالم السنن في شرح سنن أبي داود) و(أعلام السنن في شرح البخاري) و(إعجاز القرآن)- وهو أصغرها حجماً.
- ويمتاز كتابه هذا على الرماني وعلى غيره من المؤلفين في هذه القضية أنه كان في صميم الموضوع، ولم يخرج عنه ولم يتطرق به القول إلى سواه. وقد رأى أن ‘جاز القرآن بالصرفة ، والإخبار عن المستقبل ، وبلوغه الغاية في البلاغة.
- وقد ذهب إلى أن في إعجاز القرآن وجهاً آخر مهماً ذهب عنه الناس، وذلك صنيعه بالقلوب، وهو أنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها من الوجيب والقلق، تقشعر منه الجلود، يحول بين النفس وعقائدها الراسخة فيها فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله، فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في

مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيماناً.
- وهذا الرأي الذي انتهى إليه الخطابي في إعجاز القرآن من أن له سحراً في النفوس، وهيمنة على القلوب، وسلطاناً على الضمائر، لا يكاد السامع إليه يتأمل ألفاظه، ويتدبر في تراكيبه حتى يجد نفسه متعلقة به وبشعور لا يستطيع أن يعلله، ولا يمكن له أن يعرف أسبابه، هو: ما انتهي إليه الجرجاني وغيره ممن تناولوا حديث الإعجاز، وعالجوا قضية البلاغة القرآنية.

الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ : صاحب كتاب إعجاز القرآن :

هو أبو بكر: محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم المعروف بالباقلاني.
ولد بالبصرة وقد تلقى العلم على أعلامها ثم رحل إلى بغداد فأخذ عن علمائها.
وهو في كتابه، يسير وراء أمور ثلاثة:
١- يتحدث عن الإعجاز بعنوان (كونه عقيدة يجب على أهل دين الله كشفه) وبعنوان (كون الناس في ذلك ذاهبين عن الحق) وبعنوان (أنه لا يتأتى لكل إنسان أن يفهمه، إنما يفهمه أهل هذا اللسان).
٢- وهو يتحدث في أول الأمر عن كون القرآن معجزة النبي ﷺ التي جاء بها إلى الناس، معلناً أنه رسوله، الذي أنزل عليه الكتاب وأمره بتبليغه وفي خلال هذا يتصدى لمعنى الإعجاز وآراء الناس فيه والقدر المعجز من القرآن..
٣- وهل هو معجز للإنس فقط، أم هو معجز للإنس والجن؟..
وفي خلال ذلك يأتي بمقارنات من الخطب والحكم والأمثال والأشعار، ينتهي منها إلى أنها لم تبلغ شأن القرآن، ولم تعدُ أن تكون من فضول القول، ولغو الحديث بالنسبة له.. وينتهي في آخر الكتاب إلى دفع بعض الشبه التي تتوارد على القرآن من نحو قول المشركين: إنه شعر، أو سحر أو أساطير الأولين اكتتبها.

عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١ هـ) ،صاحب كتابي أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز في علم المعاني :

- تبحّر الجرجاني في علوم النحو واللغة والبلاغة، ووضع "الرسالة الشافية في الإعجاز" لتأكيد عمله المنهجي في هذا الموضوع المهم، وخالف رأي الكثيرين في الإعجاز، حين زعموا أن إعجاز القرآن، إنما هو "بالصرفة"، أي ان الله صرف العرب عن مضاهاة القرآن، فدفع هذه الفكرة بقوة وإصرار، وألح على تبيان فسادها في مؤلفاته عن الإعجاز، معتبراً ان إعجاز القرآن ليس "بالصرفة"، وانما هو في فصاحته وبلاغته.
- ورأى الجرجاني أن الفصاحة والبلاغة، هما مصدر الإعجاز في القرآن، لا عن طريق تخير الألفاظ ولا الموسيقا ولا الاستعارات وألوان المجاز، وإنما عن طريق النظم، اذ ان نظم القرآن وتأليفه، هما مصدر الإعجاز فيه، ويقول الجرجاني: "فإذا بطل الذي أعجزهم من القرآن في شيء مما عددناه.. لم يبق إلا ان يكون في النظم والتأليف".
- وحمل عبد القاهر الجرجاني على النقاد الذين كانوا ينحازون إلى اللفظ ويقدمونه على المعنى، وكان يحس بوعي نقدي أن ثنائية اللفظ والمعنى عند "ابن قتيبة" هي خطر على النقد والبلاغة، فتقديم اللفظ، قتل الفكر، لأن الفصاحة ليست في اللفظة، وإنما هي في العملية الفكرية التي تصنع تركيباً فصيحاً من الألفاظ.
- وقد شرح الجرجاني، نظرية الصورة المجتمعة من اللفظ والمعنى، ويشبهها بعملية الصياغة، واعتبر أن النظم والتأليف هما الإعجاز في الكلام، والذي يحققه التفاوت، تماما مثلما يحدث النظم في الإبريسم الذي يحافظ على "العامل العمدي" في إنشاء صورة ما، وقد وضح الجرجاني المصطلح النقدي الذي أسماه الصورة في الكلام فقال: "وأعلم أن قولنا الصورة، إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا.."
- وتحدث عن الفرق بين معنى ومعنى وصورة وصورة فقال: "ثم وجدنا بين المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر بينونة في عقولنا وفرقاً.. قلنا للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك"، ويرى الجرجاني أن التفاوت في الصور، هو الطريق لإثبات الإعجاز، فإذا بلغ الأثر الأدبي درجة من التميز لا يلحقه فيها أي أثر آخر، صح أن يسمى معجزاً.

المحاضرة الحادية عشر
نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني

- عبد القاهر الجرجاني علم من أعلام النقد والبيان في تاريخ الثقافة العربية، ويعد مؤسس البلاغة العربية ومبتكر نظرياتها عند كثير من الدارسين ، وقد عاش حياته كلها في جرجان ؛ وهي موطن كبير من مواطن الثقافة الإسلامية العربية في إيران في القرن الخامس الهجري (نحو ٤٠٠-٤٧١هـ)، وألف «المغني» في شرح الإيضاح لأبي على الفارسي في ثلاثين جزءا، ثم اختصره في كتاب سماه «المقتصد ، وهو بمثابة شرح صغير على الإيضاح، وألف مختارات من شعر المتنبي والبحتري وأبي تمام، وكانت ثقافته العربية والنقدية والبيانية اغلب عليه، ولقب بالنحوي لتفوقه الكبير في النحو ، واستقصائه لأحكامه وعلله ووجوهه.

- وإذا كانت شهرة عبد القاهر بالبلاغة قد ذاعت في كل مكان، فان شهرته بالنقد لا تقل في الحقيقة عن شهرته بالبلاغة ، وكتاباه (أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز) يحتلان الذروة في كتب النقد العربي ويمثلان منهجا كاملا فيه.

- وفي كتاب «دلائل الإعجاز»، الذي ألفه عبد ألقاهر ليحمل مقدمات في دراسة الإعجاز القرآني، يتحدث عبد القاهر عن نظريته في النظم كأساس لفهم فضيلة الكلام وبلاغته ولفهم إعجاز كتاب الله كذلك، وهو في قمة كتب البلاغة والبيان، وفي كتابه «أسرار البلاغة» يتحدث عن المعاني الشعرية وأقسامها ، ويخص التشبيه والتمثيل والاستعارة والمجاز والكناية وضروب التخييل بالشرح والإيضاح والبيان.

- وفي مقدمة «دلائل الإعجاز» يعرف عبد القاهر <u>النظم</u> بأنه «تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض ، ويجعل وجوه التعلق ثلاثة:

أ- تعلق اسم باسم.

ب- تعلق اسم بفعل. ج - تعلق حرف بهما.

ويشرح وجوه التعلق شرحا وافيا...

- ويؤكد أن نظم الكلام يقتفي فيه آثار المعاني وترتيبها حسب ترتيب المعاني في النفس ، وليس النظم في مجمل الأمر عنده إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه فلا تزيغ عنها ، فمداره على معاني النحو وعلى الوجوه والفروق التي من شانها أن تكون فيه .

- فالنظم ليس هو إلا توخى معاني النحو في معاني الكلم ، فلا معنى للنظم غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم ، أو فيما بين معاني الكلم بتعبير آخر .

- والفكر لا يتعلق بمعاني الكلمة المفردة مجردة عن معاني النحو أو منطوقا بها على وجه لا يتأتى معه تقدير معاني النحو وتوخيها فيها.

- ويشير عبد القاهر إلى أنه من الضروري في معرفة الفصاحة أن تضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلام ، وأن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلمة مفردة، وإنما تثبت لها الفضيلة وخلافها من ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك، مما لا تعلق له بصريح اللفظ.

- ويأخذ في تفصيل أمر المزية، وبيان الجهات التي منها تعرض، فيتحدث عن وجوه النظم في التقديم والتأخير، والذكر والحذف والتعريف والتنكير، والوصل والفصل، والقصر، ويفيض في ذكر ضروب من تأكد الخبر، ويعرض للتشبيه والتمثيل والكتابة والاستعارة والمجاز ، مقررا أن المزية فيها ليست في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخير ، ولكنها في طريق إثباته لها، وتقريره إياها . وقد عرض للاستعارة في بيت ابن المعتز المشهور:

سالت عليه شعاب الحي حين دعا   أنصاره بوجوه كالدنانير

- وأكد على أن الاستعارة هنا على لطفها وغرابتها إنما تم لها الحسن بما توخى في وضع الكلام من التقديم والتأخير، وتجدها قد صلحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها ، وكذلك يفصل الكلام على مدخل النظم في بلاغة الاستعارة في قوله تعالى: «واشتعل الرأس شيبا»، وقوله «و فجرنا الأرض عيونا» . ويتحدث عن التشبيه في مثل قولهم : زيد كالأسد ، وقولهم :كأن زيدا الأسد، وان في المثال الثاني زيادة في معنى التشبيه ليست في الأول، وهذه الزيادة لم تكن إلا بما توخى في نظم اللفظ وترتيبه ، حيث قدم الكاف إلى صدر الكلام وركبت مع «أن»..

- كما يتحدث عن ضروب من المجاز العقلي أو المجاز في الإسناد ، وعن ضروب الكنايـــة في التشبيـــه ، ومدخل النظم في بلاغتها.

- بل انه ليقرر أن الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النظم، وعنها يتحدث ، وبها يكون لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد ، فإذا قلنا في لفظ «اشتعل» من قوله تعالى: «واشتعل الرأس شيبا»، أنها في أعلى المرتبة من الفصاحة لم نوجب تلك الفصاحة لها وحدها، ولكن موصولا بها الرأس، معرفا بالألف واللام ومقرونا إليهما الشيب منكرا منصوبا ، فليست الفصاحة صفة للفظ «اشتعل» وحده.

- ويقرر عبد القاهر في «دلائل الإعجاز» أن المزية للكلام إنما هي في نظمه باعتبار ملاءمة معنى اللفظة لمعنى اللفظة التي تليها ، وليس الفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرد معناه ، فالفصاحة والبلاغة عبارة عن خصائص ووجوه تكون معاني الكلام عليها، وزيادات تحدث في أصول المعاني، كالذي أريتك فيما بين «زيد كالأسد» و«كأن زيدا الأسد»، ولا نصيب للألفاظ من حيث هي ألفاظ فيها بوجه من الوجوه ، فأنفس الكلم بمعزل عن الاختصاص والمزية ، فليس للفظ من حيث هو لفظ حسن «مزية» ؛ إذ المزية ليست بمجرد اللفظ، وإنما تقع في اللفظ مرتبا على المعاني المرتبة في النفس. ويجعل عبد القاهر كذلك ذروة المزية والبلاغة، وهي الإعجاز القرآني، في النظم وحده، لا في شيء آخر ، وبذلك ينتهي من عرض نظريته في النظم، هذا العرض الجديد، لتلك النظرية الجديدة أيضا، وخلاصة ما يقرره عبد القاهر هو :

١- أنه لا فصل بين الألفاظ ومعانيها، ولا بين الصورة والمحتوى، ولا بين الشكل والمضمون في النص الأدبي.

٢- أن البلاغة في النظم لا في الكلمة مفردة ولا في مجرد المعاني، والباحث عن الإعجاز عليه أن يتتبعه في النظم وحده .

٣- أن النظم هو توخي معاني النحو وأحكامه وذوقه ووجوهه في ما بين معاني الكلم.

- والحقيقة أن نظرية النظم، بما اشتملت عليه من تطبيقات وشروح واسعة، جديدة كل الجدة عند عبد القاهر، وإن ظهرت إرهاصاتها عند بعض البلاغيين السابقين ، ولكنهم لم يفصلوا القول فيها ، ولذلك جهد عبد القاهر في إيضاحها، ورفع الشبه عنها، والرد على من يعترضه فيها.

- ولقد اعتمد عبد القاهر على الذوق الأدبي الخالص اعتمادا كليا في كل ما قرره من أحكام، مؤكدا أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعا من السامع، ولا يجد لديه قبولا، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة .

- وقد اثر عبد القاهر البلاغة العربية والبيان العربي تأثيرا جليلا، بما كتب في نقد الأساليب وتحليلها، واستنباط الفروق والخصائص فيما بينها، وبما عرض له من أحكام نقدية دقيقة، على الأساليب وضروب النثر والشعر.

وليس لنظرية عبد القاهر في النظم من القيمة ما لتطبيقاته ؛ حيث يظهر فيها ذوقه العربي السليم. ذلك الذوق الذي لا يمكن أن يغني في الأدب عنه شيء، ونظرية عبد القاهر في رمزية اللغة ورد المعاني إلى النظم ومنهجه في نقد النصوص نقدا موضعيا، ما هي إلا مراحل تنتهي به إلى الذوق الذي يدرك الدقائق ويحس بالفروق ووجوه الكلام وأسراره.

- إن الأدب عند عبد القاهر فن لغوي، فإخضاع الفكرة أو الإحساس للفظ هو ما يميز الأدب عن غيره من الفنون، وهذه النظرية الصحيحة هي موضع التميز في فكر عبد القاهر ، الذي يبدأ بنظرية فلسفية في اللغة، ثم ينتهي إلى الذوق الشخصي الذي هو المرجع الأخير في دراسة الأدب والحكم عليه وتقويمه.

<u>ويمكننا أن نلخص أهم إضافات عبد القاهر الجرجاني إلى الدرس البلاغي في ما يأتي :</u>

١- نظرته الجديدة إلى اللغة : حيث إن اللفظة بمفردها لا مزية لها وإنما تكتسب حسنها وجمالها من الألفاظ التي تسبقها والتي تليها عندما تنتظم داخل جملة.

٢- قضاؤه على ثنائية اللفظ والمعنى : حيث إن اللفظ جسم وروحه المعنى ، فهما متلاحمان.

٣- قضاؤه على ثنائية التعبير العاري والتعبير المزخرف : حيث إنه لم يعلل جمال التعبير بما فيه من استعارة أو تشبيه أو كناية أو مجاز أو بديع ، وإنما عزاه للنسبة القائمة بين جميع عناصر العمل الفني المتمثلة في التركيب من ألفاظ ومعان وصور وموسيقى وعاطفة.

٤- منهجه اللغوي في تحليل النصوص الأدبية والشواهد ، حيث ربط ربطاً رائعاً بين التحليل النحوي والبلاغي والنقدي بما يكشف عن شمولية نظرته إلى الشاهد الأدبي ، واستعانته بعلوم شتى لبيان الجمال فيه.

المحاضرة الثانية عشر
الأسلوب والأسلوبية

أولاً : المفهوم :

- تعددت تعريفات العلماء للأسلوبية وتنوعت وبينها تباين من حيث الصياغة والمنطلقات وهي مستوحاة من الأسلوب ولعلنا نأخذ لمحة تاريخية عن هذا المصطلح في السطور التالية.
- لقد عرف مصطلح الأسلوب قديما عند العرب كما عرف عند غيرهم وهو في المعجم العربي يعني: السطر من النخيل وكل طريق ممتد ، والأسلوب هو الطريق والمذهب ، والجمع أساليب .
- وقد استخدم علماء العربية هذا اللفظ في دلالات اصطلاحية متعددة ، فقد ذكر ابن قتيبة مصطلح الأسلوب في قوله :"إنما يَعرِف فضل القرآن مَنْ كثر نظره واتسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب ".
- كما ذكره الخطابي في معرض حديثه عن إعجاز القرآن "وهنا نوع من الموازنة وهو أن يجري أحد الشاعرين في أسلوب من أساليب الكلام وواد من أوديته ، ويقول الباقلاني في حديثه عن الإعجاز أيضا :"وقد بينا في الجملة مباينة أسلوب نظم القرآن جميع الأساليب ، ومزيته عليها في النظم والترتيب ".
- والذي يظهر من سياق كلامهم أنهم لا يستخدمون مصطلح الأسلوب بالمعنى المستخدم الآن ، وإنما يعنون به الطريقة الخاصة في النظم والسمة المميزة لكلام عن كلام آخر ، وهذا يفيد بأن أصل اللفظ وشيئاً من المعنى كان موجودا عند علمائنا الأوائل قديما .
- وقد تطرق عبد القاهر الجرجاني للأسلوب فقال في تعريفه: هو" الضرب من النظم والطريق فيه» ، كما تعرض له حازم القرطاجني وابن خلدون ، وهذا كله مما يؤكد وجود أصل هذا المصطلح قديما .
- أما عن الأسلوب عند الأوروبيين قديما ، فقد كان من عهد أرسطو ومن بعده وكان يستخدم أصلا للقلم والريشة ثم استخدم لفن النحت العمارة ثم دخل في مجال الدراسات الأدبية ، حيث صار يعني أي طريق خاص لاستعمال اللغة بحيث تكون هذه الطريقة صفة مميزة للكاتب أو الخطيب .

أما عن الأسلوب في العصر الحديث، فإنه يعرّف تعريفات عدة ؛ نظراً لتعدد الاعتبارات ، وهي على النحو الآتي :

أ- باعتبار المرسِل أو المخاطِب:

هو التعبير الكاشف لنمط التفكير عند صاحبه ، ولذلك قالوا: الأسلوب هو الرجل .

ب- باعتبار المتلقي والمخاطَب :

هو سمات النص التي تترك أثرها على المتلقي أيا كان هذا الأثر .

ج- باعتبار الخطاب :

هو مجموعة الظواهر اللغوية المختارة الموظفة المشكلة عدولا ، وما يتصل به من إيحاءات ودلالات .

أما عن الأسلوبية في العصر الحديث :

فهي كما يقول مؤسسها الأول شارل بالي :

علم يُعنَى بدراسة وقائع التعبير في اللغة المشحونة بالعاطفة المعبرة عن الحساسية.

ويقول عبد السلام المسدي عن هذا المصطلح : إنه مركب من جذر " أسلوب " ولاحقته "يه" فالأسلوب ذو مدلول إنساني ذاتي ، واللاحقة تختص بالبعد العلماني العقلي الموضوعي .

وعرفها جاكبسون :

بأنها بحث عما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب عن سائر أصناف الفنون الإنسانية.

وقد حاول أحد الباحثين أن يجمع هذه التعريفات في تعريف واحد فقال: هي جملة الصيغ اللغوية التي تعمل على إثراء القول وتكثيف الخطاب ، وما يستتبع ذلك من بسط لذات المتكلم ، وبيان التأثير على السامع.

ومن هنا يتضح لنا الفرق بين الأسلوب والأسلوبية (علم الأسلوب) وهو كما يلي:

١- الأسلوب وصف للكلام ، أما الأسلوبية فإنها علم له أسس وقواعد ومجالات .

٢- الأسلوب إنزال للقيمة التأثرية منزلة خاصة في السياق ، أم الأسلوبية فهي الكشف عن هذه القيمة التأثرية من ناحية جمالية ونفسية وعاطفية .

٣- الأسلوب هو التعبير اللساني ، والأسلوبية دراسة التعبير اللساني .

ملحوظة: من العلماء من قال بأن مصطلح "علم الأسلوب" مرادف للأسلوبية ، ومنهم من فرق بينهما ، فقال بأن علم الأسلوب يقف عند تحليل النص بناء على مستويات التحليل وصولا إلى العلم بأساليبه .

أما الأسلوبية فهي تتجاوز النص المحلل المعلومة أساليبه إلى نقد تلك الأساليب ، بناء على منهج من مناهج النقد المعروفة ، ولكن الذي يظهر أن الفرق بينهما ضئيل جدا ، وأنهما يلتقيان في كثير من الجوانب .

ثانياً : نشأة الأسلوبية :

- كانت البداية للأسلوبية قديما عند العالم السويسري فرديناند دي سوسير ، الذي أسس علم اللغة الحديث، وفتح المجال أمام أحد تلاميذه ليؤسس هذا المنهج وهو شارل بالي ١٨٦٥-١٩٤٧م ، فوضع علم الأسلوبية كجزء من المدرسة الألسنية ، وأصبحت الأسلوبية هي الأداة الجامعة بين علم اللغة والأدب ، وبذلك ارتبطت نشأة الأسلوبية ، من الناحية التاريخية ، ارتباطا واضحا بنشأة علوم اللغة الحديثة .
- ثم إن الأسلوبية كادت أن تتلاشى ؛ لأن الذين تبنوا وصايا بالي في التحليل الأسلوبي سرعان ما نبذوا العلمانية الإنسانية ووظفوا العمل الأسلوبي بشحنات التيار الوضعي ، فقتلوا وليد بالي في مهده ، ومن أبرز هؤلاء في المدرسة الفرنسية ج.ماروزو . ولكن الحياة عادت إلى الأسلوبية بعد عام ١٩٦٠م ، حيث انعقدت ندوة عالمية بجامعة آنديانا بأمريكا عن
(الأسلوب) ألقى فيها ر.جاكبسون محاضرته حول الألسنية والإنشائية ، فبشر يومها بسلامة بناء الجسر الواصل بين الألسنية والأدب .
- وفي سنة ١٩٦٥م ازداد الألسنيون اطمئنانا إلى ثراء البحوث الألسنية واقتناعا بمستقبل حصيلتها الموضوعية ، عندما أصدر ت.تودوروف أعمال الشكليين الروس مترجمة إلى الفرنسية .

مبادىء الأسلوبية :

١- الاختيار:

وهو من أهم مبادئ علم الأسلوب ؛ لأنه يقوم عليه تحليل الأسلوب عند المبدع ، ويقصد بها العملية التي يقوم بها المبدع عندما يستخدم لفظة من بين العديد من البدائل الموجودة في معجمه ، فاستخدام هذه اللفظة من بين سائر الألفاظ هو ما يسمى " اختيار" ، وقد يسمى "استبدال" أي أنه استبدل بالكلمة القريبة منه غيرها لمناسبتها للمقام والموقف .
ويتصل بهذا المبدأ شيء آخر هو ما يسمى بـ" محور التوزيع " أو " العلاقات الركنية" ويقصد بها تنظيم وتوزيع الألفاظ المختارة وفق قوانين اللغة وما تسمح به من تصرف ، وهذه العملية هي التي يسميها جاكبسون: إسقاط محور الاختيار على محور التوزيع .

٢- العدول :

ويسمى "الانزياح " أو "الانحراف" كما سماه ابن جني قديما، أو كما سماه جاكبسون "خيبة الانتظار"، ولهذا المبدأ أهمية خاصة في علم الأسلوب حتى سماه بعضهم " علم الانحرافات " .
وهذا المبدأ ينطلق من تصنيف اللغة إلى نوعين:
أ- لغة مثالية معيارية نمطية متعارف عليها.
ب- لغة إبداعية مخالفة للنمط المعياري السابق.
فالعدول هو: مخالفة النمط المعيار المتعارف عليه إلى أسلوب جديد غير مألوف عن طريق استغلال إمكانات اللغة وطاقاتها الكامنة .
ويتضح في هذا التعبير شرط يضبط هذا العدول حتى لا يخرج عن الحد المقبول وهو أن يكون العدول في حدود ما تسمح به قواعد اللغة ، وكذلك يجب أن يكون هذا العدول ذا فائدة ، فليس العدول غاية في ذاته ، إنما المقصود منه إثارة السامع وحفزه على التقبل .

اتجاهات الأسلوبية ومناهجها :

١- الأسلوبية التعبيرية :

ويقصد بها طاقة الكلام الذي يحمل عواطف المتكلم وأحاسيسه ، حيث إن المتكلم يحاول أن يشحن كلماته بكم كبير من الدلالات التي يظهر أثرها على المتلقي ، وهي ظاهرة تكثيف الدوال خدمة للمدلولات كما يسميها البعض ، ويعد بالي رائدا لهذا الاتجاه .

٢- الأسلوبية البنائية :

وهي امتداد لآراء دي سوسير في التفريق بين " اللغة " و" الكلام" كما تعد امتدادا لمذهب بالي في الأسلوبية التعبيرية الوصفية ، وقد طور البنائيون في بعض الجوانب وتلافوا بعض جوانب النقص عند سابقيهم ، حيث عايشوا الحركة الأدبية ، وهنا يكون التحليل الأسلوبي خاضعا لتفسير العمل الفني باعتباره كائنا عضويا شعوريا .

٣- الأسلوبية الإحصائية :

- وهذا الاتجاه يعنى بالكم وإحصاء الظواهر اللغوية في النص ، ويبني أحكامه على نتائج هذا الإحصاء .
- ولكن هذا الاتجاه إذا تفرد فإنه لا يوفي الجانب الأدبي حقه ، حيث لا يستطيع وصف الطابع الخاص والتفرد في العمل الأدبي ، وإنما يحسن هذا الاتجاه إذا كان مكملا للمناهج الأسلوبية الأخرى .
- ويبقى أن المنهج الإحصائي أسهل طريق لمن يتحرى الدقة العلمية ويتحاشى الذاتية في النقد ، فيجب أن يستخدم هذا المنهج كوسيلة للإثبات والاستدلال على موضوعية الناقد ، أي بعد أن نتعامل مع النص بالمناهج الأخرى التي تبرز جوانب التميز في النص .

٤- منهج الدائرة الفيلولوجية :

وهو منهج يقوم بدراسة العمل الأدبي على ثلاث مراحل هي:

الأولى: أن يقرأ الناقد النص مرة بعد مرة حتى يعثر على سمة معينة في الأسلوب تتكرر بصفة مستمرة .

الثانية :يحاول الناقد أن يكتشف الخاصية السيكلوجية التي تفسر هذه السمة .

الثالثة : يعود مرة أخرى إلى النص لينقب عن مظاهر أخرى لبعض الخصائص العقلية .

فهذه المراحل الثلاث تشكل في هيئتها الدوران حول النص مرة بعد مرة ويعتبر سبتزر أول من طبق هذا المنهج على أعمال ديدرو ، ورواية شارل لويس.

٥- أسلوبية الانزياح :

- وهي تقوم على مبدأ انزياح اللغة الأسلوبية عن اللغة العادية ، ويعرف الأسلوب على أنه انزياح عن المعيار المتعارف عليه، فهم يعتقدون أن الأسلوب الجيد هو الذي ينحرف عن اللغة الأصلية وطريقتها الاعتيادية ، على الرغم من اختلافهم في مدى هذا الانحراف والانزياح .
- فمنهم من يدعو إلى الخروج على كل قواعد اللغة ، وهذا ما طبقه أهل الحداثة في أدبهم ، والمعتدل منهم يقول إن الانزياح يكون في حدود قواعد اللغة ، حيث يكون الإبداع بسلوك طرق جديدة غفل عنها الآخرون ، لكنها لا تخالف قواعد اللغة أي النحو ؛ ويسميها جون كوهين " الانتهاك " ؛ حيث إن المبدع يعتمد في إبداعه على اختراق المستوى المثالي في اللغة وانتهاكه.

٦- الأسلوبية الأدبية :

وهي تعنى بدراسة الأسلوب الأدبي بجانبيه الشكلي والمضموني ؛ ويسعى أصحاب هذا الاتجاه إلى اكتشاف الوظيفة الفنية للغة النص الأدبي ، وذلك عن طريق التكامل بين الجانب الأدبي الجمالي الذي يهتم به الناقد ، والجانب الوصفي اللغوي اللساني .

وهذا هو الذي يميز هذا الاتجاه عن الاتجاه اللغوي الذي لا يهتم بالمعنى ، وإنما بالشكل والصياغة .

٧- الأسلوبية التأثرية :

وينصب اهتمام هذا الاتجاه على المتلقي ، وقياس تأثيرات النص عليه من خلال استجابته وردود فعله ، حيث إن المتلقي له الحق في توسيع دلالات النص من خلال تجربته هو .

وعموماً فإن التحليل الأسلوبي للنص يقوم على ٣ مستويات هي:

المستوى الصوتي – المستوى التركيبي – المستوى الدلالي.

المحاضرة الثالثة عشر
التداوليـــــة

تمهيـــد:

- تأتي التداولية كتيار نقدي جديد يتناول النصوص الإبداعية، بوصفها حقيقة متعددة الوجوه، ولها آفاق زمانية ومكانية تعبر عن الخطاب بين المتكلم والمخاطب، أو ما يكشف عن سؤال المرء في التواصل داخل نصوص اللغة والأدب، كما تجتهد التداولية في رسم دائرة الدلالة، وتأكيد الممارسة التراثية في مجال اللسان والنص، والتعبير عن انفتاح القارئ والمتلقي والمؤول ، والحامل على النص المكتوب.

- والحقيقة أنه لا قيمة للمفردات أو العبارات بعيدة عن سياقها، فلا بد من دراسة المفردات والعبارات التي يوجهها المتكلم داخل السياق، ومن خلال الظروف المحيطة به، ومن خلال زمان ومكان التخاطب، لكي تتضح مقاصد المتكلم ، والمعاني المطلوب إيصالها للمخاطب والتي يرمي إليها المتكلم.

- وكل هذه الأمور تهتم بها الدراسة التداولية، وتهتم أيضاً بنوعية العلاقة الاجتماعية التي تجمع بين المتكلم والمخاطب، والتي تُبَثُّ عبر وسائل الاتصال، فيستعمل المتكلم طرقاً عدة للإقناع والتأثير والأمر والإخبار...إلخ وفي ضوء هذا التصور تحاول المقاربة التداولية الإجابة عن مجموعة من الأسئلة المهمة مثل:

- ماذا نصنع حين نتكلم؟ ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟ مَنْ يتكلم؟ وإلى من يُتكلم؟ ولأجل مَنْ؟ ماذا علينا أن نعلم حتى يرتفع الإبهام عن جملة أو أخرى؟ وكيف نتكلم بشيء ونريد شيئاً آخر؟ وهل يمكن أن نركن إلى المعنى الحرفي لقصدٍ ما؟

أولاً : المفهوم :

- ترتبط التداولية بكثير من العلوم: كالفلسفة واللسانيات والاتصال وعلم الاجتماع وعلم النفس...إلخ. ولكن سمتها الغالبة تتجه إلى التوجه العملي. ونتيجة لتداخلها بكثير من العلوم ، فقد عرضت لها كثير من الترجمات في اللغة العربية منها: التبادلية، والاتصالية، والنفعية، والذرائعية، والمقصدية، والمقامية، إلى جانب التداولية. وأفضل هذه الترجمات (التداولية)؛ إذ إنها من تداول اللغة بين المتكلم والمخاطب، أي التفاعل القائم بينهما في استعمال اللغة.

- ويعود مصطلح التداولية(Pragmatics) إلى الفيلسوف الأمريكي موريس Morris الذي استخدمه سنة ١٩٣٨م ، دالاً على فرع من فروع علم العلامات Semiotics ، غير أن التداولية لم تصبح مجالاً يعتد به في الدرس اللغوي إلا في العقد السابع من القرن العشرين ، بعد أن قام على تطويرها ثلاثة من فلاسفة اللغة هم (أوستن Austin،وسيرل Searle، وجرايس Grice).

- وقد اكتسبت التداولية عدداً من التعريفات، حسب اهتمام الباحث نفسه ، فقد يكون اهتمام الباحث اهتماماً بالمعنى في سياقه التواصلي فيعرفها بأنها:

١- دراسة المعنى التواصلي أو معنى المرسِل، في كيفية قدرته على إفهام المرسَل إليه، بدرجة تتجاوز معنى ما قاله.

٢- أو دراسة استعمال اللغة في الخطاب، شاهدةً في ذلك على مقدرتها الخطابية.

٣- كما قد تُعرّف من وجهة نظر المرسِل بأنها: كيفية إدراك المعايير والمبادئ التي توجه المرسِل عند إنتاج الخطاب، بما في ذلك استعمال مختلف الجوانب اللغوية، في ضوء عناصر السياق، بما يكفل ضمان التوفيق من لدن المرسَل إليه عند تأويل قصده، وتحقيق هدفه.

- إذن فإن التداولية فرع من علم اللغة يبحث في كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم أو هو دراسة معنى المتكلم. فمثلاً حين يقول شخص: أنا عطشان (فقد يعني أريد كوب ماء) وليس من الضروري أن يكون إخباراً بأنه عطشان.

- فالمتكلم كثيراً ما يعني أكثر مما تقوله كلماته.

- ومن هنا فإن أشمل تعريف للتداولية هو: دراسة اللغة في الاستعمال أو في التواصل؛ لأنه يشير إلى أن المعنى ليس شيئاً متأصلاً في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا السامع وحده، وإنما يتمثل في تداول اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدد(مادي، اجتماعي، لغوي) وصولاً إلى المعنى الكامن في كلام ما.

- ونتيجة لذلك فإنه يمكن حصر العناصر التي يهتم بها المنظرون للتداولية في: المرسل وقصده ونواياه، والمتلقي، والرسالة، والسياق، ثم أفعال اللغة."و من أجل تأويل العناصر التي ترد في خطاب ما، من الضروري أن نعرف من هو المتكلم، ومن هو المستمع، وزمان ومكان إنتاج الخطاب.

- فمعتقدات المتكلم ومقاصده، وشخصيته وتكوينه الثقافي ومن يشارك في الحدث الخطابي، والمعرفة المشتركة بين المتخاطبين والوقائع الخارجية ومن بينها الظروف المكانية والزمنية، والعلاقات الاجتماعية بين الأطراف هي أهم ما تركز عليه التداولية.

ثانياً : فروع التداولية:

نظراً لاتساع الدراسات التداولية في اللغة، فقد تفرعت عنها نظريات متعددة، اهتم كل منها بجانب تداولي معين، وتطورت أبحاثه في مسارات عدة ، فهناك:

١- التداولية الاجتماعية: التي تهتم بدراسة شرائط الاستعمال اللغوي المستنبطة من السياق الاجتماعي.

٢- التداولية اللغوية: والتي تدرس الاستعمال اللغوي من وجهة نظر تركيبية.

٣- التداولية التطبيقية: وهي تعنى بمشكلات التواصل في المواقف المختلفة.

٤- التداولية العامة: وهي التي تُعنَى بالأسس التي يقوم عليها استعمال اللغة استعمالاً اتصالياً.

ثالثاً : جوانب الدراسة التداولية:

عنت الدراسات التداولية بأكثر من جانب من جوانب الخطاب، ويمكن إرجاع هذه الجوانب إلى أربعة مسارات، يتضمن كلاً منها عدداً من الدراسات، وهذه المسارات هي :

الإشاريات، والافتراض المسبق، والاستلزام الحواري، والأفعال الكلامية.

ونتحدث عنها بشكل أكثر تفصيلاً فيما يأتي :

أولاً - الإشاريات(Deictics):

- إن الإشاريات مثل أسماء الإشارة، والأسماء الموصولة ، والضمائر، وظروف الزمان والمكان؛ من العلامات اللغوية التي لا يتحدد مرجعها إلا في سياق الخطاب؛ لأنها خالية من أي معنى في ذاتها، لذلك فقد كان العرب سابقاً يطلقون عليها المبهمات ، إلا أنها عامل هام في تكوين بنية الخطاب ؛ فلها دور مهم في الإحالة إلى المعلومات.

- إذن فالإشاريات هي تلك الأشكال الإحالية التي ترتبط بسياق المتكلم ، مع التفريق الأساس بين التعبيرات الإشارية القريبة من المتكلم مقابل التعبيرات الإشارية البعيدة عنه" فكل فعل لغوي يكون ناجحاً إذا علم المخاطب قصد العبارة وإحالتها، وإذا كان للمتكلم غرض ينبغي بموجبه أن يشكل المخاطب هذه المعرفة.

وتشمل الإشاريات ٥ أنواع هي :

١- الإشاريات الشخصية:

وتشمل ضمائر المتكلم، والمخاطب،والغائب، فهذه الضمائر عناصر إشارية، لأن مرجعها يعتمد اعتماداً تاماً على السياق الذي تستخدم فيه.

مثل:أنا نعسان. فالسياق هو الذي يحدد إحالة الضمير (أنا).

٢- الإشاريات الزمانية:

هي كلمات تدل على زمان يحدده السياق بالقياس إلى زمان التلفظ، فإذا لم يعرف زمان التكلم أو مركز الإشارة الزمانية التبس الأمر على السامع أو القارئ.

فإذا وجدنا إعلاناً: ستبدأ التخفيضات الأسبوع القادم. فإننا إذا لم نعلم زمن الخطاب(الإعلان) ، فإننا لا نعرف هل التخفيضات ستبدأ، أم مضى الأسبوع وبدأت التخفيضات، كما أننا لا نستطيع تحديده على وجه الدقة إذا لم نعلم وقت الإعلان تماماً.

٣- الإشاريات المكانية:

وهي كلمات الإشارة نحو هذا وذاك للإشارة إلى قريب أو بعيد من مركز الإشارة المكانية، وكذلك هنا وهناك من ظروف المكان التي تحمل معنى الإشارة إلى قريب أو بعيد من المتكلم وسائر ظروف المكان مثل: فوق، وتحت، إمام، وخلف.

وهذه العناصر الإشارية إلى الأماكن تعتمد في استعمالها وتفسيرها على معرفة مكان المتكلم وقت التكلم، أو على مكان آخر معروف للمخاطب أو السامع .

ثانياً - الافتراض السابق(Presupposition):

- يوجه المتكلم حديثه إلى المخاطب على أساس مما يفترض سلفاً أنه معلوم له، فإذا قال شخص لآخر:أغلِقْ النافذة. فالمفترض سلفاً أن النافذة مفتوحة، وأن هناك مبرراً يدعو إلى إغلاقها، وأن المخاطب قادر على الحركة، وكل هذا موصول بسياق الحال، وعلاقة المتكلم بالمخاطب.

- ويقرر فينيمان أن لأي «خطاب» رصيداً من الافتراضات المسبقة(يضم معلومات) مستمدة من المعرفة العامة، وسياق الحال، والجزء المكتمل من الخطاب ذاته" ، فلدى كل طرف من أطراف الخطاب، رصيد من الافتراضات المسبقة، وهذه الافتراضات في تزايد مع تقدم عملية الخطاب. وضمن رصيد الافتراضات المسبقة المصاحبة لأي خطاب، توجد مجموعة من المسلمات الخطابية.
- والمعلومة المسلمة هي تلك المعلومة التي يعتبرها المتكلم قابلة لأن نحصل عليها، إما بالإحالة إلى ما سبق من النص ، أو بالعودة إلى المقام.
- وتشير أداة التعريف إلى ما يسمى بالمعلومات السابقة، بينما تؤدي أداة التنكير وظيفة الإشارة إلى معلومات لاحقة، أي إلى وحدات لغوية، لم يوضحها المتكلم بعد، مثل قولنا:
- كان في قديم الزمان فتاة..(إشارة إلى معلومة لاحقة يتوقع السامع أن يخبر بها)
- كانت الفتاة جميلة ومتواضعة.(إشارة إلى معلومة سابقة)
لذلك فإن المتلقي يبني فهمه لمعنى السياق على ترتيب معين.

ثالثاً ـ الاستلزام الحواريConversational implicature:

- لقد عمد جرايس - أحد المنظرين للتداولية - إلى إيضاح الاختلاف بين ما يقال وما يقصد، فما يقال هو: ما تعنيه الكلمات والعبارات بقيمها اللفظية، وما يقصد هو: ما يريد المتكلم أن يبلغه السامع على نحو غير مباشر، اعتماداً على أن السامع قادر على أن يصل إلى مراد المتكلم بما يتاح له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال. ونتيجة لهذا كان يفرق بين المعنى الصريح وبين ما تحمله الجملة من معنى متضمن ، فنشأت عنده فكرة الاستلزام.

ورأى جرايس أن الاستلزام نوعان:

أ- استلزام عرفي. ب- استلزام حواري.

فالاستلزام العرفي: قائم على ما تعارف عليه أصحاب اللغة من استلزام بعض الألفاظ دلالاتٍ بعينها لا تنفك عنها مهما اختلفت بها السياقات وتغيرت التراكيب. من ذلك(لكنّ) فهذا يستلزم أن يكون ما بعدها مخالفاً لما يتوقعه السامع.مثل: زيد غني لكنه بخيل.

أما الاستلزام الحواري: فهو متغير دائماً بتغير السياقات التي يرد فيها.

فحين يقال:كم الساعة؟

فإن مقصد المتكلم يختلف حسب السياق الذي وردت فيه الجملة، فقد يكون سؤالاً، وقد يكون توبيخاً للتأخر.

رابعاً ـ الأفعال الكلامية Speech acts:

- هي أفعال ينجزها الإنسان بمجرد التلفظ بها في سياق مناسب، بجملة نعبر بها عن مدلول إنجاز ذلك العمل. فليس التلفظ بالخطاب فعلاً تصويتياً فحسب، بل هو فعل لغوي، فهناك أعمال لا يمكن إنجازها إلا من خلال اللغة، وهذا ما يجعل الخطاب فعلاً بمجرد التلفظ به، وذلك مثل: نلتمس الموافقة – شكراً- أنتِ طالق.

ويمكن تقسيم هذه الأفعال إلى:

أفعال إخبارية: تصف وقائع، وتكون صادقة أو كاذبة.

أفعال أدائية: تنجز بها في ظروف ملائمة أفعال، ولا توصف بصدق أو كذب، ويدخل فيها: التسمية، والوصية،والاعتذار، والشكر، والمواساة، والنصح، والوعد، والتحدي، والإذن..إلخ.

*وقد وجد أوستن ، أحد فلاسفة اللغة المنظرين للتداولية ، أن الفعل الكلامي مركب من ثلاثة أفعال، تعد جوانب مختلفة لفعل كلامي واحد، ولا يفصل أحدها عن الآخر:

١ـ الفعل اللفظي: يتألف من أصوات لغوية تنتظم في تركيب نحوي صحيح ينتج عنه معنى محدد وهو المعنى الأصلي، وله مرجع يحيل إليه.

٢- الفعل الإنجازي: وهو ما يؤديه الفعل اللفظي من معنى إضافي يكمن خلف المعنى الأصلي.(كالتحذير من عمل شيء، أو رجاء عمل شيء...)

٣- الفعل التأثيري: ويقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في السامع(أن يسعد، أن يغضب..).

فعلى سبيل المثال: حين تقول أمٌّ لطفلها:(الكلبُ يَعَضُّ)

فإنها تنجز فعلاً قولياً لفظياً منطوقاً، وحين تقول الأم هذه الجملة فإنها تنطق تحذيراً في الوقت نفسه؛ أي تنجز فعلاً إنجازياً، وحين يختار الطفل طريقاً آخر ، فإن ذلك هو النتيجة والأثر للمنطوق نفسه.

المحاضرة الرابعة عشر
السيميائيـــــة

تمهيـــد:

- ارتبطت السيميائية المعاصرة ارتباطا وثيقا بالنموذج اللساني البنيوي المعاصر الذي أرسى دعائمه اللغوي المشهور السويسري دي سوسير الذي جعل من اللسانيات علما شاملا تستفيد منه المعارف الأخرى كالنقد الأدبي والأسلوبية والتحليل النفسي وعلم الاجتماع .فقد وجدت السيميائية – بوصفها علما حديثا – في المبحث اللساني مرتكزا تقوم عليه ،وتستقي منه تقنيات وآليات ومفاهيم تحليلية .خاصة سيمياء الدلالة التي تلجأ إلى تطبيق الثنائيات السيميائية على موضوعات غير لغوية ولكنها ذات طبيعة اجتماعية كالألبسة والأطعمة والموروثات الثقافية ومن أهم هذه الثنائيات :اللسان والكلام ،الدال والمدلول ،المركب والنظام ،التقرير والإيحاء

- للسيميائية إذن تفاعلات كثيرة مع علوم أخرى ،ولأنها ترتبط منهجيا بدراسة الأدب والفنون اللفظية والبصرية كالموسيقى والتشكيل والمسرح والسينما .

- وفي علاقة السيميائية باللسانيات :قولان :الأول هو رأي دي سوسير ويقول إن اللسانيات أخص من السيميائية لأن اللسانيات جزء من السيميائية عنده .والثاني هو رأي رولان بارت القاضي بأن السيميائية جزء من اللسانيات وفرع عنها .فدي سوسير يرى أن السيميائية هي الحقل الأوسع الذي يشمل – فيما يشمل –اللسانيات بينما يرى رولان بارت أن كثيرا من العلامات البصرية والأنساق غير اللفظية تستعين بالأنظمة اللغوية ،مما يجعل الأخيرة هي الأصل .

- إن تعدد مصطلحات السيميائية من باحث إلى آخر لا ينفي حقيقة كون هذه المصطلحات دالة في عمومها على فكرة واحدة هي النظر إلى العلامة بوصفها إشارة تدل على أكثر من معنى.

أولاً : المفهوم :

- عرفها بيير جيرو بأنها :" العلم الذي يهتم بدراسة أنظمة العلامات :اللغات ، والأنظمة والإشارات ، والتعليمات ..." وهذا التحديد يدخل اللغة تحت مفهوم السيميوطيقا ؛ وهو الفهم الجديد لعلم السيمياء الذي يعود الفضل فيه إلي العالم الشهير فيردناند دي سوسير الذي يقول عن السيمياء في كتابه (محاضرات في علـم اللغة) :«إنها العلم الذي يدرس حياة العلامات من داخل الحياة الاجتماعية».

- ونستطيع –إذن – أن نتصور علماً يدرس حياة الرموز والدلالات المتداولة في الوسط المجتمعي ،وهذا العلم يشكل جزءاً من علم النفس العام ؛ونطلق عليه مصطلح علم الدلالة (السيميولوجيا)؛ وهو علم يفيدنا موضوعه عن الجهة التي تقتنص بها الدلالات والمعاني.

- أما مارتينيه فيعرفها قائلا :"السيميولوجيا :دراسة جميع السلوكيات والأنظمة التواصلية ".

- و تسعى السيميائية إلي تحويل العلوم الإنسانية (خصوصاً اللغة والأدب والفن) من مجرد تأملات، وانطباعات إلي علوم بالمعنى الدقيق للكلمة . ويتم لها ذلك عند التوصل إلي مستوى من التجرد يسهل معه تصنيف مادة الظاهرة ووصفها من خلال أنساق من العلاقات تكشف عن الأبنية العميقة التي تنطوي عليها . ويمكِّنها هذا التجرد من استخلاص القوانين التي تتحكم في هذه المادة . وتتركز نظرية دي سوسير على فحص العلامة ،ويرى س.و.موريس :"أن السيميائية لم تكن مجالا تخصصيا فحسب ،بل إنها احتلت فوق ذلك موقعا مركزيا في البحث العلمي بوجه عام ،إذ كان عليها مهمة اكتشاف اللغة المشتركة في النظرية العلمية ".

ثانياً : المباديء:

- تبحث السيميائية عن المعنى ،من خلال بنية الاختلاف ولغة الشكل والبنى الدالة .وهي لذلك لا تهتم بالنص ولا بمن قاله ،وإنما تحاول الإجابة عن تساؤل وحيد هو :كيف قال النص ما قاله ؟ ومن أجل ذلك يفكك النص ويعاد تركيبه من جديد لتحدد ثوابته البنيوية.

وهذا العمل يقوم على المبادئ الآتية:

أ- التحليل المحايث: يبحث عما يكوِّن الدلالة من شروط داخلية ، وإبعاد كل ما يعد خارجياً ؛ أي البحث عن العلاقات الرابطة بين العناصر التي تنتج المعنى .

ب- التحليل البنيوي : حيث إن إدراك المعنى لا بد له من وجود نظام من العلاقات تربط بين عناصر النص ،ولذا فإن الاهتمام يجب أن يوجه إلى ما كان داخلا في نظام الاختلاف الذي يسمى شكل المضمون وهو التحليل البنيوي .

ج- تحليل الخطاب : يعد الخطاب في مقدمة اهتمامات التحليل السيميائي الذي يهتم بالقدرة الخطابية ، وهي القدرة على بناء نظام لإنتاج الأقوال على عكس اللسانيات البنيوية التي تهتم بالجملة .

ثالثاً : المدارس والاتجاهات:

بعض العلماء يرى أن هناك اتجاهين رئيسين للسيميولوجيا هما :

١- الاتجاه الأمريكي ورائده بيرس ومعه كارناب و وسيبوك.

٢- الاتجاه الفرنسي ورائده دي سوسير ومن سار على دربه ، مثل بويسنس وبريبطو وموبان وررولان بارت.

وهناك اتجاهات فرعية يمثلها جريماس ، وبوشنكي ، وجوليا كريستيفا ، ويعرف أحيانا بمدرسة باريس ومن أهم أعضائها جوزيف كورتيس .

ويرى آخرون أن الاتجاه الروسي اتجاه رئيس ثالث ،وأن المدرسة الفرنسية يجب أن تقسم إلى فروع كالآتي :

أ- سيميولوجيا التواصل والإبلاغ كما عند جورج مونان.

ب- سيميولوجيا الدلالة ، ولها أشكال عدة :اتجاه بارت الذي يحاول تطبيق اللغة على الأنساق غير اللغوية .واتجاه باريس ومن رموزه ميشيل أريفي ، وكلود كوكيه ، وجريماس . واتجاه المادية عند جوليا كريستيفا .واتجاه الأشكال الرمزية عند موليتو وغيره.

رابعاً : المصطلحات السيميائية السائدة:

أ- العلامة :

- العلامة هي الاصطلاح المركزي في السيميائية . وتُعنى السيميائية بالعلامة على مستويين: المستوى الأول وجودي (أنطولوجي) ، و يعني بماهية العلامة أي بوجودها وطبيعتها وعلاقتها بالموجودات الأخرى التي تشبهها والتي تختلف عنها . أما المستوي الثاني فهو مستوي تداولي (براغماتي)، يعنى بفاعلية العلامة وبتوظيفها في الحياة العملية .

- ومن منطلق هذا التقسيم نجد أن السيميائية اتجهت اتجاهين لا يناقض أحدهما الآخر ، الاتجاه الأول يحاول تحديد ماهية العلامة ودرس مقوماتها ، وقد مهد لهذا المنحى تشارلز بيرس ، أما الاتجاه الثاني فيركز علي توظيف العلامة في عملية التواصل ونقل المعلومات ، وقد اعتمد اذا الاتجاه علي مقولات فرديناند دي سويسر .

فالمستوى الأول :

يدرس السيميائية وفقاً لأبعاد ثلاثة :

أ- البعد النظمى السياقي :وهو يدرس الخصائص الداخلية في منظومة العلامات دون أن ينظر في تفسيرها أي ينظر في بنية العلامات داخل المنظومة أو(القصيدة مثلاً) .

ب- البعد الدلالي : يهتم بالعلاقة بين العلامة وبين مدلولاتها ، فهو يدرس محتوى العلامات والعلاقة القائمة بين العلامة وتفسيرها وتأويلها من دون النظر إلي من يتداولها .

ج- البعد التداولي: يدرس الصلة بين العلامة ومن يتداولها وتحدد قيمة هذه العلامة من خلال مصلحة من يتداولونها .

ونلحظ هنا أن البعد الدلالي والسياقي لهما صلة بمسائل محددة من السيميائية ، أما البعد التداولي فله علاقة بدراسة المسائل السيميائية التي تحتاجها علوم معينة مثل :سيكلولوجيا اللغة (علم النفس اللغوي)، وعلم النفس الاجتماعي.

وفي المستوى الثاني:نجد أن دي سوسير يعرف العلامة بأنها " اتحاد لا ينفصم بين دال ومدلول والدال تصور سمعي يتشكل من سلسلة صوتية يتلقاها المستمع وتستدعي إلى ذهنه تصورا ذهنيا مفهوميا هو المدلول ." أي هي وحدة ثنائية المبنى لا يمكن فصل طرفيها أحدهما عن الاخر . فالعلامة عنده نتاج لعملية نفسية.

وتتآلف العلامات فيما بينها وفقاً لنوعين من العلاقات :

أ- العلاقات النظمية السياقية : حيث تنبع قدرة العلامات علي التآلف من محور ذي بعد واحد يجعل العلامات ترتبط بعضها بالبعض الآخر في متتالية من العلامات تنتمي إلي السياق نفسه .

ب- العلاقات الاستبدالية : وهي تنبع من قدرة العلامات علي تشكيل جداول ترتبط وحدات كل جدول فيما بينها ،ويمكن للواحدة أن تحل محل الأخرى إذا تبدّل السياق .

ومما يدل على أهمية هذا المصطلح أن الكثيرين يسمون هذا العلم بعلم العلامات ؛ومن هؤلاء بيرس الأمريكي الذي يميز بين أنواع العلامات، فيقول إنها ثلاثة أنواع :
١- العلامة الأيقونية: Iconic Sign مثل الصور والرسوم البيانية ،والخرائط ،والنماذج والمجسمات. وهي التي بينها وبين ما تدل عليه محاكاة ،أي هي تحاكي ما تشير إليه .وقد تكون هذه المحاكاة عالية كما في الصور التلفزيونية . أو منخفضة كما في اللوحات السريالية والأحلام وبعض مفردات اللغة التي تحاكي معانيها كأسماء الأصوات .
٢- العلامة الإشارية: Indexical Sign وهي التي بينها وبين مدلولها تلازم مشهور مثل :دلالة الدخان على النار ،ودلالة آثار الحيوانات عليها ،وكذلك آثار المجرمين .
٣- الرمز أوالعلامة الاصطلاحية:Symbol
وهي ما اتفق عليه مجموعة من الناس بناء على اصطلاح معين ،وليس بينها وبين ما تدل عليه أي محاكاة مثل :إشارات المرور، والعلامات الموسيقية، وكذلك الكلمات المفردة في أي لغة.

ب- المحايثة :
شاع هذا المصطلح في بداية ستينيات القرن الماضي ، ويعني التحليل المحايث عند البنيويين "أن النص لا ينظر إليه إلا في ذاته مفصولا عن أي شيء يوجد خارجه "؛ فهي عزل النص عن سياقاته المحيطة .ويرى آخرون أن "المحايثة هي رصد لعناصر لا تفرزها السيرورة الطبيعية لسلوك إنساني مدرج داخل المدى الزمني ."

ج- المعنى :
- قد يستعصى المعنى على تحديد معنى له ، وقد لا يفرق الكثيرون بين المعنى والدلالة .ولكن يجد بعض العلماء فرقا كبيرا بين الاثنين ؛ فمثلا عبد القاهر الجرجاني يفرق بين المعنى ومعنى المعنى .فالمعنى عنده هو الذي تقودك له الألفاظ وحدها وتصل إليه بغير واسطة .أما معنى المعنى فهو أن تعقل من اللفظ معنى ،ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر .
- المعنى عند البعض معنيان :المعنى الاصطلاحي الذي يتشكل من عناصر لغوية لم يطرأ عليها تغيير دلالي ،والمعنى الإيحائي ويتألف من عناصر شكلية تحمل دلالات متعارف عليها في مجموعة لسانية معينة .
- ويرى المعاصرون أن الأصل واحد وهو المعنى الذي تدركه في الإحاطة الأولى .أما معنى المعنى فهو الدلالة التي تشير إلى السياقات الممكنة التي تشتمل عليها العلامة .ولا يفرقون في ذلك بين اللغة ووسائل الاتصال الأخرى من إشارة أو طقوس أو غيرها .

د- الدلالة :
مفهوم الدلالة مفهوم مركزي ينتظم حوله النشاط السيميائي في مجمله، وهي الناتج الصافي للمادة وهي وجهها المتحقق أو هي سيرورة انتاج المعنى .ويرى آخرون أن السيميائية لا تبحث عن دلالات جاهزة أو سابقة على الممارسة ، بل هي "بحث في شروط الإنتاج والتداول والاستهلاك . لأن ما "يستهوي النشاط السيميائي ليس المعنى المجرد والمعطى ؛لأنه مرحلة سابقة على الإنتاج ؛ بل هو المعنى من حيث هو تحققات متنوعة ميزتُها التمنع والاستعصاء على الضبط ".

هـ- التأويل :
- يعني التاويل أخذ المعنى على غير معنى الكلمات بتجاوز الظاهر إلى الخفي ؛ ففي الاصطلاح :"هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به ."
- وتتداخل حدوده في كثير من الأحيان مع مصطلحين آخرين هما :الشرح والتفسير، وله ارتباط وثيق بمفهوم الدلالة ؛ لأن الكلمة لا تقف عند حدود التعيين ؛ أي تحديد الشيء الذي نحتت من أجله الكلمة ، بل تتخطى ذلك إلى سياقات ضمنية ليست أصلية تتعلق بالوضع الثقافي .
- وهناك إجماع على تعدد الدلالات لكل من الكلمة ووسائل الاتصال غير اللسانية.